الرواية العربية

محاولة .. للخروج

عبد الحكيم قاسم



الـروايـة العـربيـة



الاخراج الفنى

البير جورجى

محاولة .. للخروج

روايـــــة

عبد الحكيم قاسم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

أنا ...

أحمل صيف القاهرة على رأسى ، فى عينى ، فى قلبى ، وأدب فى الشوارع بلا كلال ، يوليو يفرش السكك نارا ، توشك الأشياء أن تتوهج ، يتقرح تحت أبطى ، ثنيات رقبتى ، ما بين فخذى ، .. لكننى أمشى ، اندفع مثل جمل قديم ، السير غناء داخله الذى كواه امتداد الفيافى الموحشة بلا دليل .

فقد أصبحت فى الثلاثين ولم أنجز بعد شيئا ، مع أننى كنت دائما مفعم القلب بالرغبات العظيمة ، ولم أقعد ابدا راكدا فى ظل جدار ، وكل ليالى العمر لم أنم الا قليلا .

ما أكاد أحط رحالى حتى أقوم ، فالصـــحاب أجدبت فروات رؤوسهم وحلقت على اطلال ملامح وجوههم الكآبة ، وشرفات المقاهى صاخبة بضجة لا تخترقها فجوة واحدة منصته ، الكراسى قائمة فى توتر هندسى صلب عدائى ، وغرف البيوت خانقة والحيطان متسخة مزينة بسوقية خالية من البهجة ، والنساء ذابلات العيون ملولات ، والسلالم عالية متربة ، تصعد الى أبواب ساخنة صامته ، أطرق الصمت الأخرس ، وأنتظر قلقا لينفرج الباب عن « لا » مبتسرة ضجرة قانطة .

لكن قاهرة يوليو لم تقتل بعد حلمى ، أخوض الاختلاط المجنون مائلا بكتفى متفاديا الشراسة المستوفزة التى توشك أن تنفجر عند أدنى لمسة ، أخلع قدمى من الأسفلت المصهور ، تطل على واجهات متلوية بتموجات الضوء الباهر ، والقيظ كامن فى الشواشى جاثم على أكف الأوراق المغبرة ٠

أمد رقبتى الى الامام مثل النعامة ، تستروح جبهتى الملتهبة نسمة باردة تستريح على سخونتها ، وتعشعش فى لحم صدرى تحت قميصى المفتوح الأزرار ، وأحلم بكلمة لى فى أغنية متساوقة الايقاع والأصداء ، بحنان يترقرق فى عينين ساجيتين ، بقبلة فى امسية تتقطر فيها الأضواء والأنداء والنسيم والحنين ٠

وأخاف ، وأخاف أن تنسد الدروب بالظلام والصمت ، وتبرق فى الأركان عيون الوحشة فأعود كسيرا ، تنكفىء على حيطان غرفتى بيضاء معتمة بلا شبابيك ، افتح عينى فى سواد الظلمة ، وتسقط الهواجس على جسدى مثل ورود محترقة الأوراق ٠

أحمل كتابى كل يوم وأدب الى « ايفلين » السويسرية زوجة صديقى الشاعر ، تعلمنى الفرنسية ، أردد الكلمات وراءها ، أنطق الراء غينا ، يزغرد الضحك فى قلبى ، تتتابع فى رأسى صور الكتاب ، برج ايفل ، الكونكور ، الحانات ، التماثيل ، النافورات ، قبل الوداع على أرصفة القطارات ، الراقصـــات يطيرن ذيول المخرمات حول سيقان هيفاء ٠

وذات يوم قالت لى « ايفلين » أن ثمة فريق من السويسريين ، فتيات كثيرات ، ورجلان وثلاث سيدات فى العقد الرابع ، وصـــل الجميع فى رحلة الى القاهرة ، وانها تشرف على سياحتهن ، وانها تود أن أكون معها ، وأن أصحب الجميع فى رحلة الى سقارة ٠

كان ذلك فى اليوم السادس عشر من يوليو عام ألف وتسعمائة ستة وستين ٠٠ وساعتها كدت أطير فرحا ٠٠

- ١ -

أن يكون ثمة هذا العدد الكبير من الفتيات ، ذهبيات متوردات الوجوه دهشـــة ولهفة ، وأن تنطلق بنا هذه العربة الســياحية الفارهة الى ســـقارة ·· يارب كل شيء ·· أن الوضـــع مليء بالاحتمالات الرائعة ·

يخرجن من الفندق ويجرين الى العربة واحدة وراء الأخرى ، طائرات على أجنحة خفاف ، يرتدين عقلا أو قبعات أو عقودا ضخمة الحبات ، محملات بالحقائب ، والكاميرات وأنا فى مكانى أنظر ، جمدنى الارتباك ، ولا تنس ايفلين وسط لهوجتها وانشغالها أن تشير الى ربكتى بابتسامة ساخرة ·

ـ أركب

مشيت بين صفى المقاعد أتطلع الى الوجوه الشقراء الملوحة والى العيون المتسعة بالدهشة وفى ظهرى كلمات فرنسية ســـريعة تقدمنى ·

ـ كاتب قصة ·· شخص ممتاز

استطلع انعكاس الكلمات فى العيون ، تعليق واحد ساخر أو تحديق مستريب يمكن أن يصيبنى بالدوار ، سرت الى آخر العربة ·

ثمة فتاتان على المقعد الأخير ، واحدة بجوار كل نافذة ، هذه الدقيقة الحجم غير عادية ، لا تبدو عليها تلك اللهفة العبيطة التى تسود وجوه الأخريات ، ترتدى نظارة شمس أنيقة ، وتلف شعرها فى ايشارب أسود شفيف ، وتدخن بأناة كأنما هى جالسة فى صالون تنظر من النافذة فى استطلاع هادىء وحلقات الدخان تحوم متمهلة حول وجهها ٠

اما الأخرى ـ على الطرف الآخر من المقعد ـ فهى قلقة متوترة تتحرك عيناها بسرعة تطلق تعليقات دهشة متعاقبة ، صوتها يحمل رنة باكية تدفع الانسان لأن يصمت ويستمع اليها ، جلست على المقعد الذى أمامها ، أحس بقلقها خلف ظهرى ، لكن الأخرى هى التى تعنينى ومن هذا الوضع استطيع أن ألحظها كل حين ، لكن ٠٠ شيئا ما ، دائرة مرسومة حولها تبدو صعبة الاختراق ٠

بدأت العربة تسير فى شوارع القاهرة فى ظهر شديد القيظ ، كل واحـــدة من الاثنين تتطلع من نافذتها ، الباقيات فى المقـاعد الأمامية ـ ظهورهن لى ، أنا وحدى تماما ٠

تذكرت صف الغرف على الســـطوح ، وتلك الباحة المبلطة الممتدة ـ تحت هذه الشمس ـ أمام صف ابواب الجرباء ، غرفتى الآن جحيم حقيقى ، بيضاء الجدران بلا شبابيك ، تنقصـــها نحلة خضراء تطن فى صمتها لتكون قبرا حقيقيا ، اضم شفتى كاتما ضحكا مريرا لعلهم الآن ـ زملاء الســـطوح ـ يخرجون من الغرف ـ حفاة فى ملابسهم التحتية ـ الى دورة المياة القائمة وحدها بعيدا ، يغسلون بضعة أطباق ، يقرقعون بضعة ضحكات ، بضعة صيحات كئيبة ، ثم لا يلبث المكان أن يغرق فى السكون تحت هذا الوهج المسلط ولعل أخى يستلقى الآن عاريا على السرير هامدا ناضحا بالعرق ، وبين آن وآخر يلقى نظرة فاترة على سريرى المتمدد بجوار الحائط الآخر ثم يعود الى اغماض بلا نوم ٠

أمس مساءا قلت لهم أننى ذاهب مع بنات سويسريات الى سقارة ، أحاطونى بعيون ضفادع بلهاء ، قرقعوا بضع ضحكات ثم عادوا يدبون بين صف الغرف ودورة المياة القائمة وحدها بعيدا ٠

عند اشارة مرور حمراء تكاثرت العربات ، تكاد تتلاصق ، الاتوبيســات مائلة بأحمالها تكابد لتدب على الأرض ، شـــوهاء مستهلكة مثيرة للحزن ٠

كل العيون خارج النوافذ ، يتفرجون علينا ، يالرثاثتنا وفقرنا، كم نحن كآبى وشاحبون لكننا ٠٠ آه ، صدرى ممتلىء بالكلام ، وأحدا لم يسألنى ، أنا هنا وحدى ٠

ناقد ورسام من أصدقاء ايفلين يجلســـان فى الكرسى الذى أمامى ، ينظران للبنات ويعلقان تعليقات ساخرة ٠

ـ شايف البنت اللى لابسة عقال

ـ آخر عبط

اقبلت صـــديقتنا عليهما ، لابد أدركت شـــعورهما بالغربة والحصار ٠

ـ ليه ماتتكلموش معاهم ٠

تململا فى مكانيهما ، خجلين كطفلين مذنبين ٠

ما الأمر فى هذه الرحلة ، تجربة ٠٠ ؟ ، يا للسخف ، نحن حتى لانستطيع أن نتكلم معهن ، لا توجد لغة يجيدها كلا الجانبين ، هل أستطيع أن أكون فى القاهرة قبل الثامنة والنصف ، ينتظروننى لأقرأ احدى قصصى فى ندوة ٠٠ أوف ٠٠ ، عدت أتمدد فى مقعدى هامدا ٠

خرجنا من القاهرة والســـيارة الآن تسير فى طريق زراعى

مرصوف وتمر ببعض القرى الصغيرة ، تلك الفتاة الباكية الصو
خلف ظهرى تتكلم فرنسية متلاحقة سريعة أحاول بجهد أن أدرك
بعض ما تعنى ، ظننتها تقول ٠

ـ كم هى فقيرة وقذرة هذه البيوت ٠

نظرت حيث تنظر ، البيوت مكدسة ومتداعية وقذرة ، والناس دؤوبون معلولون كقرية النمل ، أحسست بالخجل والقهر ، التفت لهما ٠

ـ انها خير من بيوت الناس فى قرى أخرى ٠

لم تفهم تماما فرنسيتى الركيكة ، لكن نبرة التحدى فى صوتى جعلتها تجفل مرتبكة وتعلق بسرعة ٠

ـ مساكين ٠

نكست عينى وانا اعترف ، لكن باعتزاز ٠

ـ نعم ٠٠ نحن فقراء ٠٠

ومن خلف ظهر هذا الاحساس الخطابى كنت أطرف ناحية الأخرى ، لو تتكلم ٠٠ !!

ليست أكثرهن جمالا لكنها أقربهن الى ، وقد أموت قبل أن أجرؤ على القيام والسير نحو واحدة أخرى وبدء الكلام معها ٠٠ ثم انها تدخن السيجارة هكذا ، وحينما تصعد حلقات الدخان نحو عينيها تضيقان قليلا ثم تعود ملامح وجهها تستريح حالمة ، واذا يستلفتها شىء ، تتأمله ، ثم تعود دوائر اللامبالاة تتراكم على جانبى الفم ٠

فجأة سألتنى ، وبالانجليزية ٠

ـ كم محصولا تزرعون ٠٠ ؟

لماذا بالانجليزية ·· ؟ هل رأت عسرى الشديد مع الفرنسية ؟ وأى سؤال ·· ؟

ــ الدورة الزراعية عندنا أربعة وعشرين شهرا نزرع فيها ثلاثة محاصيل بشــكل أســاسى القطن والقمح والذرة ، وهناك محاصيل أخرى كالقصب ، والخضروات ··

ــ هل هذا هو نخيل البلح ؟

ــ نعم ··

متى يستحصد ؟

ــ فى سبتمبر

ــ ·······

ــ وذلك هو الذرة ··

ــ أعرفه ·· نحن نزرعه

ــ لكن ·· اسمحى لى ·· أسئلتك خاصــة قليلا ·· هل تدرسين الزراعة ·· ؟

ــ لا ·· اننى قروية ·· أبى مزارع ··

ــ حقا ·· ؟ اننى من قرية أيضا ·· أبى فلاح ·· يمكنك أن ترى قريتى ·· ستحبينها جدا ·· نحن فقراء ·· متخلفون ·· لكن ·· سوف تجدين أشياء لطيفة ·· مصر ليست القاهرة ·· انها الريف ·· تعال لزيارة قريتى ·

ــ ان ذلك يكون رائعا ·· أنا شخصيا أريده ·· لكن لست أدرى ·· برنامجنا قد يكون مزدحما ·

فتحت حقيبتها وأخرجت ورقات مكتوبه بالفرنسية على الآلة الكاتبة ، انتقلت الى جوارها فى قفزة ، ركبتها عارية وناصعة البياض ، وأنا مزدة غاية الازدهاء ، أعضائى تكاد تبكى سرورا أخذت منها الورقات :

« ·· الاثنين ١٨ يوليو زيارة سقارة ، الثلاثاء مصر القديمة، الأربع والخميس والجمعة الصعيد ، السبت المتحف المصرى ، صباح الأحد جولة حرة ·· »

ـ ما معنى هذه الجولة الحرة ·· ؟

ـ كل واحد يفعل ما يحلو له فى النصف الأول من هذا النهار ·

ـ حسنا يمكن استغلاله فى زيارة القرية ··

ـ كم من الوقت لغاية هناك ·· ؟

ـ ساعتان للذهاب ومثلها للعودة ، ثلاث ساعات هناك ·· ذلك نصف نهار ·

ـ أنا شخصيا موافقة ·· سنرى على أى حال ··

ثم انتهى الحديث ، اخرجت علبة سجائرها وعزمت على ، لا أدخن ، أشعلت سيجارتها وبدأت حلقات الدخان تتصاعد بطيئة وهى تضيق عينيها لتحاشيها ، انصرفت عنى كلية ودون مقدمات ، تستمتع بالتدخين هادئة سارحة مع الحقول التى تعرض نفسها وراء النافذة لا تنظر ناحيتى أبدا ، بقيت ساكنا لدقيقة ثم قمت متسللا الى مقعدى خزيانا وثقيل الأطراف ·

اننى أفكر بغددى لا بدماغى ، وأعصابى متصلة مباشرة بهذه الغدد ، والا كيف أخزى هكذآ اذ تنصرف عنى ، تمددت فى كرسى وبدأت أحلم ، أتكلم مع فتيات متيمات بى ، الكلام ينساب كالنهير

والاعجاب يلتمع فى العيون ، لا أغيض « ذبع حكمتى يفيض فيضا طبيعيا ·

حق أحلامى ، أحمله خلف أذنى كالمدمن ، أتعاطى منه صاحيا ونائما ، أحلم بكل صــــور الكمال الممكنة ، يتمدد فى داخلى خدر رائع ·

لكن ما كان لى أن أدعوها الى البلد ، لو حضر كل هؤلاء ، كيف أطعمهم ، قد يكلفنى هذا خمس جنيهات ، من أين ؟ ، لو كنت أقل تسرعا ، كيف احتال لأخرج من هذه الورطة ، لكنه شىء رائع أن تأتى ، هذه الدقيقة الجميلة التى تدخن فى هدوء خلف ظهرى ·

وكل الناس ظهورهم لى · يتكلمون أو يرتبون أشياءهم أو يدخنون أو يطلقون ضحكات صــــغيرة أو يغرقون فى تأمل الحقول خارج النوافذ ، وذلك الشاب الصغير ، يسند مرفقيه على مسندى مقعدين ورأسه تتدلى بين كتفيه كالمشنوق ، ملأنى منظره غيظا ، انصرفت عنه الى تأمل الصحراء خارج النافذة ، امتداد رملى ساح ملىء بوحشة غريبة ·

أطرف ناحيتها ، فمها كبير وشفتاها مرهفتان جافتان عاريتان من الطلاء ، وحينما تبتسم تبدو أسنانها مصــــفرة من التدخين ، تأملت فمها أكثر ، رأيت المسام الدقيقة والزغب على شفتها العليا ، وتلك القصة على جبينها ، تضايقنى كأنما تدغدغ جلدى أنا ، لو أمد يدى فأزيحها برقة ثم احتضن وجهها بين كفى ، وألمس بشفتى جذور الشعر النابتة تحت الحاجبين الرقيقين ، وتلك الخيوط الذهبية التى تشوب اخضرار العينين لو اصطاد رجفة الرقة المشوقة فى تيه اللامبالاه الزاخر فى الخطوط المحيطة بالفم ·· أحزان قديمة ، تنهمر على القلب من منابع لا يطولها ادراكى ·

فجأة وجهت الكلام الى :

ــ اسمع ٠٠ أريد أن أرى حقل قطن

ــ ذلك سهل جدا ٠٠ فى قريتى يمكن أن ترى عشرات من أفدنة القطن ٠ تجاوزت جملتى كأنما لم تسمعها ، أضفت :

ــ وقد نمر الآن على حقل قطن ٠٠

هزت رأسها فهما ، ثم انصـــرفت عنى كلية الى النافذة ، أسقطتنى فى العزلة مرة أخرى وهذه المرة كانت المسألة غير معقولة ، أن أزدهـــر أو أخبو اذا كلمتنى أو أنصـــرفت عنى ٠٠ امتلأت سخطا ، قمت واقفا مناديا صديقتنا وعندما ردت على اكتشفت أننى لا أجد ما أقوله ٠

ــ احنا فين ٠٠ ورايحين فين ٠٠ ؟

ــ ممفيس

أبطأت العربة حتى وقفت بجوار ممفيس ، نزلت الفتيات جميعا ، مضت بينهن ، عادية تماما ، لا تتميز بشىء خاص ، خطوط ظهرها مستقيمة مثل صبى نحيل ، ما الذى يشدنى اليها خطوت الدرجات صاعدا الى المبنى الصغير حيث تمثال رمسيس ٠٠ جثة حجرية خرافية الحجم ، تمثال مســـجى لكنه بملك من وضع هذا زمجرة عاتية صامتة ، خبطت براحتى على الحجر ردنى بقسوة ، ساعده الأيسر اكلته الأرض ، يمتد بطول الجسد متآكلا مهيضا ، لكنباقى الأعضاء تتفصد قوة ٠

صعدنا سلما الى شرفة تدور حول التمثال ، رجله اليمنى طاحت قدمها ، مشرعة الى الامام فى خطوة شوهاء مخيفة ماحقة ، درنا فى الشرفة ، لا شىء انسانى فى وسامة الوجه ، قبضة جهنمية

مضمومة الى الصدر ، مطبقة على ورقة مطوية لعلها تفويض الهى ، امتلأت خوفا وكراهية ·

عكفوا على التمثال يدورون حوله ويلتقطون له الصـــور ، الترجمان الأســـمر فى غاية الانفعال بأمجاد الملك ، وجهه متوتر بعصابية قاسية ، درت بعينى بحثا عنها ، لم تكن تصور ، نظرت الى التمثال قليلا خائفة ، ثم استدارت ، مشيت اليها ، أقتربت منها حتى أصبح كيانى يحتوى وجودها الدقيق ، تنظر من النافذة الكبيرة الى الخلاء ، تتأمل أكواما من الصخور وكسر الأوانى ، **فلمتنى** دون أن **تلتفت** الى :

ـ ما هذا ؟

صوتها مخملى ، تفجر فى ينابيع غزيرة من الرقة

ـ يحفرون ويحفرون ، يجدون أشياء قليلة لها قيمة ، وأشياء كثيرة يلقون بها هكذا ·

سارحة ، عيناها خضراوان يشوبهما الذهب ، تتأمل امرأة سمراء نحيلة تسعى مهمومة بين الانقاض المكدسة ·

ـ هل هذه المرأة زوجة الترجمان ؟

التفت ناحية الرجل الذى لازال منفعلا بأمجاد الملك ·

ـ ربما ·· ليس هذا صعب التصور ··

ـ هل ننزل ·· ؟

ـ لحسن ·· أحمل عنك الحقيبة ··

ـ لا ·· ليست ثقيلة ··

فى الباحة حول المبنى كانت هناك لوحة كبيرة من البـــازلت

مزينة بالرسوم والكتابات الهيروغليفية ، تماما مثل تلك البراءات التى تعلق فى الغرف القديمة ، وعلى البعد تمثال صغير لابى الهول ، يدورون حول كل شيء يتأملون ويصـــورون حتى كسر التماثيل . واحد منهم يفاوض صبيا يحمل صندوقا مليئا بالجعارين والتماثيل الصغيرة ، سألنى الشاب السويسرى :

ـ هل تعتقد أن هذه أشياء أثرية ؟

ـ لست خبيرا ، على أن بعضها لابد أن يكون أثريا ، فهو صدىء تماما لحقت بها بعيدا عن الجمع ، سارحة تتأمل أشجار النخيل ·

ـ النخيل كثير هنا ·

ـ طبيعة الأرض ·· فيها رمل أكثر

عدنا الى العربة ، كل فى مكانه الأول ، وعادت هى ترتب ثوبها حول ساقيها تعدل نظارتها وتدخن سارحة عبر النافذة كأنما هى جالسة فى صالون ، أبتسمت لها ثم أدركت أننى أبتسم بلا معنى ، وتجاهلت هى ابتسامتى تماما ، غرقت فى احساس خانق بالسخف والتفاهة ·

الرسام يدور حوله بعينين جاحظتين مثل ضفدعة ، لابد أنه طرى لزج مثل ضفدعة ، الناقد يمتص سيجارته بالحاح وضيق ، الشاب الصغير يفترس بنظراته ساقين بيضاويين على البعد ، يثير النفس مثل عنكبوت ·· حولت بصرى الى النافذة ، لم تقع عيناى عليها كل الأشياء تقبض النفس ··

هذا حقل قطن ··

ـ خللى السواق يقف يا ايفلين ·· عشان نشوف غيط القطن ده ··

وسارت أمامى بين صفى المقاعد ، ألمس كتفيها برقة ، الفرحة تزحم صدرى ، نظرات من الجانبين ، ثم تقرر بعض الفتيات اللحاق بنا ٠

قفزت عابرا القناة الصغيرة الى الحقل ثم أخذت يدها لتعبر ، القطن يملأ صدرى برائحته وصهده ، امتداد من تزاحم الاخضرار المشوب بسحبات بنية كابية ، النسمات توش فى الأوراق باطراد ، النوارات الصفراء تنتظر يوم سقوطها رقيقة مذعورة ، ركعت على ركبتها تلمس النوارات بحنان ، حقل القطن يفرض على احساسى ثقلا خاصا ، انتزعت لوزة خضراء وفسختها لأريها الياف القطن غير الناضجة لكنها لم ترحب بشرحى ، قطعت فرعا محملا باللوز والنوار وأخذته لنفسها ، فى العربة أستقبلنا بنظرات مستغربة هنا وهناك ٠٠

وضعت فرع القطن جنبها تسوى ورقاته وتربت عليه ، ملأنى الشك والغيظ من مبالغتها مددت يدى أقطـــع الورقات من الفرع متساخفا ٠٠

ـ انها ستذبل فورا ٠٠ ألق بها ٠٠ سآتيك بفرع آخر قبل سفرك مباشرة ٠٠

نحت يدى عن الفرع وهى تنظر الى عابسة ٠

ـ لكننى أريد هذا ٠٠

العربة تصعد بجهد فى الطريق المرصوف ، رست أعلا التل ، نزل الناس ، تبهرنى الصخور هائلة الكتل التى تتوزع بلا نظام ، تفرض ثقلها على الاحساس بقوة كان يجب أن أقفز فوقها لأقاوم خضوعى لها ، ومع آخرين درنا حولها اكثر من دورة ، ثم تحدرت نازلا مندفعا ، أما هى فكانت ساكنة تتأمل الحقول المنبسطة فى القاع ٠

الناس والنخيل والشجر والبهائم صغار كالدمى فوق مساحات من الخضرة ، جمال كذلك الذى على بطاقات البريد وقفت بجوارها ، ذلك الانفعال الذى ملأنى من جهد التسلق يتسلل من عروقى رويدا ، ونسائم يسمع هسيسها فى الشواشى المتمايلة فى الحقل البعيد تحتنا ٠

ها هو هرم سقارة وسط امتداد من الرمال وسحجات من الحطام ٠٠ رسونا أمام استراحة لطيفة تحت خيمة كبيرة ، كانت هناك قبلنا كثير من العربات الخاصة والاتوبيسات والتاكسيات ، حمير وخيل مهزولة وجمال مزركشة السرج ، وأولاد سمر ممصوصين يحاصرون الناس بالعرض والالحاح ٠

شمس الرابعة تسطع بيضاء على رمل ناعم ملتهب ونحن نمشى نبدأ ريادتنا ، وهى على البعد متحدبة قليلا لتخلص قدميها من الرمل واحدة بعد الأخرى ، وهكذا تكتسب خطوط ظهرها رقة ورهافة ٠

أقبل على رجل سويسرى نحيف ذو نظارات ، يبدو عليه اهتمام غير عادى ، زم فمه حتى صار مجرد نقطة وعيناه عابستان صارمتان مركزتان على ، كلمنى كلاما فرنسيا كثيرا سريعا جدا لم أميز منه سوى كلمة (تى) ، وظننت أنا أنه يريد أن يشرب شايا ، وأجبته بفرنسية ركيكة أن الشاى يمكن تناوله فى الكازينو ، ولكنه أكب بوجهه الصارم وفرنسيته السريعة مكررا الكلمة اللعينة ، أسقط فى يدى وأسرعت صديقتنا لنجدتى ، وعرفت أنه كان يسأل عن مقبرة وزير أسمه (تى) ٠

ومن الهجير الأبيض الباهر تحدرنا نازلين الى مقبرة الوزير (تى) على الباب عمودان كبيران يحملان رسمين كبيرين للوزير ، ثم ممرات وقاعات معتمة رطبة توزع الجمع ، هنا وهناك تسمع صيحة دهشة أو تعليق مبهور ، وصوت الترجمان يحكى ويشرح ،

الحيطان سوق هائل مزدحم لا تمل من استطلاع تفاصيله ، صفوف صفوف من البشر واحمال من البضائع والأوانى والطعام ، فاكهة وحبوب ، رؤوس عجول وأفخاذ لحم ، ٠٠ هذه الرسوم الصغيرة التى لم تفقد ألوانها تأخذك آلاف السنين الى الوراء الى تفاصيل حياتهم ، كيف يحصدون الغلال ، يدرسونها ويذرونها ، يحسبها الكاتب وتوضع فى المخازن هنا يصيدون والأسماك تسبح تحت القارب فى انتظار الحراب المشرعة ، هنا يذبحون الثور ، كيف يقيدونه ويلقون به أرضا ٠٠ ، فلاحون خارقو الدهاء ، يحكون بأناة شديدة وعلى وجوههم تعبير واحد رائق مبتسم ٠

آخذ حياته معه الى هذا الكهف ، يرقد ها هنا محدقا فى الحائط المقابل حيث تحكى الحكايا لا ينضب معينها والأمير لا يغمض أبدا من الملل ، كان رعبه من الموت يفوق رعبى ٠

فأنا خائف ، أخاف أن أفقد يوما روعة انبهارى بالحكايا ، أناديها آخذها الى الحائط كل آن ، ثلاث أوزات تكون رقابهن المشرعة المتتابعة تناغما جميلا ، وجه حمار طفلى فى غاية الوسامة ، تنظر الى الصورة طويلا ثم تبتسم وتنظر الى شاكرة وتمضى تختلط بالجمع وتشاهد لنفسها ٠

تعجلنا الترجمان قائلا :

ـ يالله بسرعة ٠ فيه مصاطب ثانية ٠٠ علشان تشوفو الملك والملكة عالسرير وهى بتضرب له على العود ٠

ضججنا بالضحك ، وتلفتت الوجوه السويسرية متسائلة ، وشرحت لهم صديقتنا ، أبتسموا ومضينا جميعا ، وأنا وهى فى المؤخرة ٠

ـ حقيبتك ثقيلة ·· هل أحملها عنك ·· ؟

ومشيت بجوارها صـــامتا تنتعل قبقابا ، تلف ابهام رجلها اليمنى بالبلاستر ، أحكمت الايشارب حول شعرها ، وجهها هادىء ، بدأت الفة ، بدا صديقا ، أتأمله بلا توتر ، لا أكتشفه ، انما أتأمل ملامح أعرفها ، معرفة قديمة ودودة ·

تبدو مرهقة قليلا ، تزدهى وجناتها ازدهاء واهنا ، اختفت تلك اللامبالاة تماما من حول الفم ، غاية فى الرقة كراهبة ، ·· هل نجلس على الصخرة القادمة وأحكى لها عن أشياء كثيرة ، بسيطة لكنها تحيرنى أحيانا ، وأحيانا تخزنى وأحيانا تصيبنى بالحزن ، هذه الأشياء بتفاصيلها التى لا غناء فيها ، أحن الحكى مثل فلاح قديم وعيناى ممتلئتان بحنان وجهها :

ـ أتعرفين ·· ؟

ـ هه ·· ؟

ـ للآن ·· لا أعرف ما أسمك ··

ـ الزبث

ـ اليزابث ·· ؟

ـ لا ليس اليزابث ·· بل هكذا ·· الزبث ··

ـ الزبث ·· ؟

ـ نعم ·· هكذا

ـ ······

ـ أتعرف ··· ؟

ـ ······

ـ هذه أختى ٠٠ الأكبر منى ٠٠

ـ تبدو طفلة ٠٠

ـ ذلك ما يدهش الجميع ٠٠

ومرة أخرى غرقنا فى حياة المصـــريين القدماء ، الحيطان المزدحمة بالناس والحركة والأشياء ٠ الزبث الى جوارى تشب على أصابعها لترى ، رفعت الىوجهها مشيرة بأصبعها الى رسم رجل يحمل على رأسه سلة مليئة بالفاكهة ٠٠

ـ ما هذا ٠٠ أى نوع من الفاكهة ؟

ـ برتقـــــال ٠٠

نظرت الى متشككة فى اجابتى السريعة ، ضحكت وضحكت هى الأخرى ، ضحكتها عذبة كقطرة ندى ، قلت من خلال ضحكى ٠

ـ لم لا ٠٠ البرتقال ليس أقل استداره ٠

ـ نعم حقا ٠٠ لم لا ٠٠

كانت ايفلين تشرح للرسام الخطوط الأساسية فى رسم لثور موثق للذبح ، الخطوط بسيطة ومليئة بقوة مقاومته للحبال ، الرسام منصب على الرسم يلتهم الخطوط بكل كيانه ٠

وأنا لمحت شيئا فريدا ، رسم لرجل وامرأة لم يبق منه الا كفان متعانقان ، عناق الكفين قصة تقول كل الأشياء برقة وبساطة ، قصيدة مفعمة حنانا ٠٠

ـ الزبث

أمسكت يدها ، فقد كان من الضرورى أن أمسك بيدها فورا قدتها الى الرسم ٠

ـ الزبث ·· أيمكن أن يوجد رسم ليدين متعانقتين يحتوى هذه الكمية من الرقة والتناغم ·· ؟

استراح كفها فى راحتى ، وهى تتأمل الرسم مغرقة ··

ـ آه ·· ساحر ·· جميل حقا ··

وانسحبت كفها من يدى وسارت محدودبة قليلا تتأمل الحيطان ·· الحيطان الغارقة فى العتامة ، المبقعة بالألوان ، والرسوم الدقيقة المتراكمة الغريبة ، عالم من شخوص وطقوس وحركة متفجرة فى ذلك السكون ، تأخذك اليها ، تذيبك فى تفاصيلها فى سكونها الخارق القوة ·· انطلقت خارجا ·

شهقت أملأ صدرى بالحياة الصاخبة بالضوء وحولى وجوه الحمارين والجماله الذين ينتظرون بدوابهم الجمع الذى يتفرج بأسفل ·

لمحت عشة صغيرة على تل عال ، جريت صاعدا اليها ، لابد أن فيها شىء ما ، قلة مكسورة أو صفيحة مسودة من عمل الشاى ، شىء ما تحسه وتنقله ، لا يطل عليك من حائط حجرى ساكن ·

وجدت زيرا ، الماء يشف من الطين الراسب فى القاع « غرفت الماء بالكوز دون حرص امتلأ ماءا عكرا بالطمى ، استطعمته وبلعته غسلت وجهى ورقبتى وصدرى وتحت أبطىء ، فرحة صغيرة ، تحدرت نازلا ، أزر قميصى غارقا فى الماء مثل بطه ، يدفعنى الانحدار بقوة ، وهى واقفة على باب المقبرة ، عند آخر الشوط هادئة ، وقفت أمامها ألهث وهى تبتسم لى ، أعيونها ما أرى ·· أم الصحراء فى عينيها ذهبية مشوية بالاخضرار ·

ـ تعالى نجلس هناك ··

ومشت معى صوب صخرة نائية ، هادئة كدجاجة تحلم ، هل

هو الاجهاد والحر أم تلك الحيطان الغارقة فى العتامة الزاخـــرة بألوان غريبة من الحياة ،جلسنا متجاورين وهى ترنو وتبتسم ٠

ـ غوزماغى ٠

تهدل بهمس مثل حمــــامة فى بنية ، سألت بكل ما ف حياتى وعمرى من رقة ٠

ـ ما هذا ؟

انها أختى

ـ آه روز مارى

ـ نعم

ـ هل نلقى عليها حصوة ٠٠ ؟

أنتبهت ، لها وجه طفلة شقية ، دعتها الزبث لتجلس

ـ مرسى ٠٠ لا مكان لى معكما ٠

ثم أنطلقت تلحق بالجمع ، سألت الزبث

ـ أليست غريبة حقا ؟

ابتهجت كأنما تكتشف شيئا مفرحا

ـ نعم ٠٠ قليلا ٠٠ لا تألف الناس بسهولة ٠٠ مع انها لطيفة

قمنا نمشى الى الكازينو ، ارتمينا على الكراسى من الاجهاد والحر ، الزبث وصديقتها وأنا ، قدمتها لى بسرعة ٠

ـ ايلين ٠٠ صديقتى

ـ هاللو

وجهها مرهف نحيل مرتبك ، فمها واسع وشفتاها متوترتان ·

ـ هاللو

طلبت شايا وأخرجت سندوتشاتى من لفة وبدأت ألوكها أما هما فقد طلبتا كازوزة ، الجرسونات مشغولون جدا ، وصول الجميع أوجد حركة كبيرة ، الناقد يجلس مع مجموعة على أريكة وظهره لى ، التفت لى فجأة ·

ـ معاك أكل

ناولته سندوتش وسألته ··

ـ حتيجى الندوة الليلة ··

ـ أه صحيح ··

ثم وجه الحديث الى الزبث بالانجليزية ··

ـ آلاف الناس ينتظرونه ·· أديب خطير ·

إراد أن (يخدمنى) فاربكنى حقا ، قلت موضحا

ـ لست أديبا خطيرا ، انما أنا كاتب صغير ·· بعض النا س سيسمعون احدى قصصى ··

أنصتت بأدب ثم علقت ··

ـ قالت لنا ايفلين أنك تكتب القصص

احسست بالسخف

ـ شىء مثل هذا

ناولتنى ايصال مشروبها

ـ كم يجب أن أدفع

ـ خمسة عشر قرشا

لم يكن بوسعى أن أستضيفهما ، قلت فى نفسى أن ذلك شرقى جدا ٠٠

انشغلت الزيث بنفسها ، ترتب حاجياتها وتسوى جلستها تلم ثوبها حول ساقيها ، ثم أشعلت سيجارتها وبدت منعزلة تماما عن الضجيج حولنا ، ومن جديد أكتسب وجهها مسحة جادة ، وأتسعت حولها تلك الدائرة الصعبة الاقتحام ٠

تأملتها مستغربا ، أين كل مارأيناه معها ، كأنما كانت فى مشوار عادى ممل تذهب اليه كل يوم ، لكننى كنت حولها طول الوقت أحيطها بشغفى ولهفتى ، وكانت تشرع نحوى وجها مليئا بالعذوبة ٠٠ ، لا يمكن أن تكون عادية الى هذا الحد ، ترى ماذا تقول فى نفسها الآن ٠٠ أحاول أن أصطاد رعشة عينيها ، ٠٠ لكنها غارقة فى حديث عن المشروبات والحر ، وأنا خارج الدائرة أنتظر ٠

أتفرج على صخب الناس وعكوفهم على المشروبات والطعام ، والوجوه القانية من وهج الشمس ، العيون الدهشة والأحاديث الصارخة الضاحكة ، الجرسونات المنهمكين فى الدوران بين المقاعد ٠

ثم قمنا نمشى ، تتفرق الناس جماعات صغيرة ، ومشيت أنا وحدى ، كفاى متحاضنتان خلف ظهرى وقدماى تخبطان الحصباء وئيدا ٠٠ ألتفت ، كانت ورائى بعيدا ، تعلقت نظراتنا لجزء من الثانية ، لكننى تابعت سيرى ٠

أكداس من كتل الحجارة هنا وهناك ، بقايا هرم أو حطام

عمود أو جدار فى مقبرة أطلال مهيضة ، خرساء لا تقول ، ملقاة فى سكون ، ياللحزن ، ٠٠ الاطلال ، والنفس الموحشة والشمس الغاربة التى يمشى فى بهائها الشحوب ٠

من بوابة حجرية هائلة دخلت ، مشيت فى ممر صغير بين صفين من الأعمدة ، أعمدة جسيمة مكينة محدقة ، صفان ممتدان مثل صفى حراش مخيفين ، أتلفت من عمود الى عمود ٠٠

أنتهى الممر الى فضاء كبير فى صدره يقف هرم سقارة ، شامخ قادر مسيطر ، أكاد أسجد أمامه على الرمل ، هذه الكتلة الهائلة من الصخر ، أى رهبة ملأ بها قلوب ملايين المؤمنين ، أى عبقرية تلك التى أكتشــــفت ما تحتويه الكتلة المجردة من نفوذ هائل على وجدان الانسان ٠

كانت واقفة بجوارى ، أهدابها ترتعش لتحمى عينيها من أشعة الشمس الغاربة ، وجهها ـ مرة أخرى ـ وديع وديع ، رقيق فى غاية العذوبة ، ركزت كل حواسى فى يدى التى ستحتوى كفها الآن حالا ٠

ـ لنصعد هذا السلم ٠

كفها صغير دافىء ، خفيفة تقفز جنبى صاعدة ، وقفنا معا ننظر للهرم مرة أخرى ، نحن أعلى كثيرا وأقل خشوعا ٠

ـ الزبث

ـ ههه ٠٠

أحب تلك الخطوط الذهبية فى عينيها

ـ انظرى ٠٠ كل هذه البقايا ٠٠

أمتداد بعيد من حطام الصخور ، بقايا قصص ، ربما ، كل

صخرة هنا كانت جزء من شيء ، من تكوين ، تتأمل وتتساءل وتتخيل وسط هذا السكون ·

ـ الزبث ·· انظرى ··

حجرة حجرية اصطنع الخفير لها بابا واختص بها ، ضحكنا ربما كانت هذه الحجرة مخدع الملك ، دون قصد ولجزء من الثانية تلامس جسدانا ، هتفت بها ·

ـ الزبث

تعطينى عينيها وابتسامتها الرقيقة ··

ـ هلم نكتشف ·· لأنفسنا ·· عالم الصمت هذا ··

نحن وحدنا تماما ، لا أحد قريب منا ، سبقتها قافزا ، كل قفزة أنتظرها وأسندها لتلحق بى ، وهذه المرة كانت الأرض بعيدة والقفزة كبيرة ، حرضتها قفزت ، تلقفتها ، أصبحت بين ذراعى ، أضغطها الى صدرى ، وجنتها فى شفتى ، قبلتها ، أسرعت بها الى فتحة باب فى جدار ترست رجلها فى الجدار وتملصت قافزة ، جذبتها عنوة من يدها ، ادخلتها لففت ساعدى رقبتها ، غطت وجهها بيديها ، تذودنى ، ألهث ، أفح فحيحا مكتوما وهى تناضلنى ·

ـ لا ·· لا ··

ثم قفزت منفلته ، ووقفت ازائى بعيدة ، عينـــاها باردتان قاتلتان ، شفتاها تلتويان أشمئزازا ، ركبنى شعور همجى بالاستهانة ضحكت مقهقها ، تركتنى ومضت تسوى ثوبها فى اتجاه الجمع ·

وأنا مشيت أخبط الأرض كدمية محشوة بالتبن ، لا جدوى ·· لا جدوى ، لقد تلفت الأشياء جميعا ، هل أستطيع أن ألحق بندوة الليلة ، ربما ·

عدنا الى أماكننا فى الأوتوبيس ، كنت خجلا أمام نظـــراتها الباردة العدائية ، أستجمعت نفسى بجهد قائلا :

ـ لا تزورى قريتى ٠٠ ؟

ـ لا ٠٠

تألمت لنفسى ، لم أصنع شيئا بشعا الى هذا الحد ، انفعلت ، تكلمت غاضبا وبسرعة

ـ انك تفهمين الناس من خلال مسلمات حمقاء ، الانســان ليس آلة مضبوطة على قواعد أخلاقية ثابتة ، هل يجب أن نفهم كل الأشياء ونعللها تعليلا صحيحا ، ألا توجد أشياء فقط نحسها وفقط نحبها من خلال احساسنا بها ، ألا توجد أشياء شاذة ورائعة حقا ، كيف تصبح الحياة دون الخطأ والعفوية والصدفة غير المعقولة ، ربما كنت سيئا لكننى لست بشعا ٠٠

بهتت قليلا ، لكنها عادت تشعل سيجارتها وتصرف انتباهها خارج النافذة ٠

مضى وقت طويل جدا وأنا مطـــرق لا أنظر اليها ، فجأة سألتها ٠

ـ لن تأتى الى القرية ؟

هزت رأسها رافضة ، وأنا قمت متثاقلا الى ايفلين

ـ نزلونى فى شارع الهرم

ـ تعالى الحفلة بتاعتى بكره بالليل ٠

ـ طيب

ونزلت ، نقرت على الزجاج ، أنتبهت ، لكننى لم أميز تعبير وجهها ، مضى الأتوبيس ، وأنا وقفت وحدى انتظر ، فى داخلى شىء حقير يقفز على كل أحلامى الجميلة ويلتهمها ·

فى الندوة قدمنى الرجل بأدب شديد الى جمهور يزيد قليلا عن عشرة ، مطت الحروف كخطيب فى جامع ، وجوه الأصدقاء خلو من التعبير كتماثيل عبيطة ، ووجه أخى ملىء بالقلق مت على نفسى من الضحك فى داخلى ، لا أدرى لماذا ·

خرجنا نتسكع فى الشوارع ، ضائعين ممرورين ، كل واحد فى عالمه ، ويحصى خسائر النهار ـ ربما ـ ويحس بالقلق ، فالأيام تمضى فى محاولات فاشلة لصنع شىء جميل ·

ـ ٢ ـ

ابتسم صديقى الأسمر النحيف ابتسامة حزينة وقال لى :

ـ حتهيص أنت مع السويسريات ·· !!

سكت متأملا ـ كم نحل وجهه وأسودت أسنانه وتلفت من الدخان ، قلت هامسا متوسلا :

ـ تعـــالى

مد كفه المعروق يبسط خصلات قليلة على صفحة رأسه التى تعرت من الشعر ··

ـ لا ·· لا ··

كان شعره هذا أثيثا أسودا يتهدل على جبين متورد بالعافية والجهد ، يطير فى شوارع طنطا على دراجة تطاوعه كأنها جزء منه وهو جناحها الوثاب ، يلعب كرة المائدة ، يلاكم يناقش ، يصيح مصفقا فرحا كطفل ·

تحاضنت كفاى فى حجرى ونكســـت رأسى ؟؟؟ ، هكذا تتساقط أعضائى من خلفى تلقى معفرة بالتراب ·· ومازال فى شىء ينبض ، يرقص محموما متشوقا مهتاجا ، ياربى كم يملؤنى التأثم، لكنه الخوف من القعود ، الذبول والنهاية ·

سلمت منصرفا ٠

لا أرى الناس ، ولا أحس التزاحم الضجر بالأكتاف ، والتأفف والشتائم واللعنات ، روحى تسبق الاتوبيس طائرة ٠

دخلت على صديقى فى عمله ٠

ـ اسمع تيجى حفلة ايفلين ٠٠ هيكون هناك البنات كلهم ٠٠

أحبه حينما يبتسم ويبدو وجهه هكذا رائعا ٠

ـ هاجى طبعا ٠٠ ضرورى ٠٠

يقبض على يدى بتأكيد صارم ودود ، ٠٠ ولكنى أعلم أنه ان يأتى ، سرعان ما يقرر مليئا بالابتهاج ، ولكنه اذ يتدبر الأمر وحيدا متفكرا ، تملأه اللامبالاه والقرف من كل شىء ، لابد أنه فى هذه اللحظات يكون فارغا وعدائيا كأمرأة عجوز وحيدة ٠

نزلت من عنده أمشى ، هكذا سوف أذهب الى الحفلة وحيدا ، لكننى سوف أذهب سوف أذهب ، وعلى قبلا أن أنجز أشياء كثيرة ٠٠ لكن ما هى هذه الأشياء ؟

أستحميت ، غيرت ملابسى ، أغرقت نفسى بالكولونيا ، لبست بذلتى السوداء الأنيقة أحس احساسا مجيدا ، أحى البواب بأنفة ، أمشى طائرا ٠

على آخر درجة من سلم بيت ايفلين ، وقبل أن أرفع يدى لاطرق الباب وصل لسمعى صخب المحتفلين وضحكاتهم ، جمدت فى مكانى منصتا خافق القلب ، يتميز صوت عود عازفا تقاسيم ، يترسل حتى يستحوذ على أنصاب الجميع ، ثم ينطلق صوت شعبى غاية فى الرقة بموال عن البنات ، السمكات ، وكيف أن صيد السمك (غية) ، وأنه يحتاج (لحنية) تثيرنى رقة الكلمات الى أعماقى ، ويتراجع الباب منفتحا تحت يدى ٠

أسرعت الى الشرفة ، الجميع هناك ، تستضىء الوجوه من اعلانات النيون المعلقة على قمم العمارات المجاورة ، ٠٠ وكانت هى فى الصدر ، صغيرة فى كرسى كبير من القش تدخن شاردة ، انتبهت لمقدمى ، تعلقت نظراتنا ، عيناها باردتان كعينى أفعى ، أنكسر أزدهائى بقسوة ، مشيت محاذرا ، جلست على كرسى واطىء بجوار الحائط ، الجميع مطرقون أنصاتا ، والموال يحلق رقراقا محمولا على حلقات الدخان الطائر ، فتيات يدرن بصوانى من القش عليها أكواب عصير الليمون وأطباق اللحم ، تل من زجاجات البيرة فى طشت مغمور بالثلج ، أخذت لنفسى زجاجة ، ابتسمت لى ايفلين مقدمة لى طبقا ، كدست فيه كومة من شرائح اللحم ٠

صفق الناس لانتهاء الموال ، استلم عازف العود الزياط وبدأ يتقافز بعوده كالمجذوب يقود أصوات المصريين المتدفقة القوية ، الليلة الكبيرة ، لحن الشياليين ، اندفعت بقوة ، أغنى أكل ، أشرب ، أخبط قدمى وكفى ، وعيناى المجنونتان دائرتان حول وجهها ، لا تلتقيان بعينها أبدا ٠

وفى جزء من الثانية رنت الى قفزت متنقلا بكرسى الى جوارها، رفعت وجهى اليها

ــ صدقينى لم أرتب للأمر ليحدث ٠٠ صدقينى

ــ حسنا أصدقك ٠٠

وهاهى الآن معى ، نمشى ، نجوب سكون شوارع القاهرة بعد منتصف الليل ، أنصت لخفق قبقابها على الأسفلت ، واهنا مثل تربيت كف الأم ، ويقع الضوء على الطريق الممتد تتراكب حواشيها المؤطرة بالظلال ٠

ــ الزبث ٠٠ ها أنت معى ٠٠ مرة أخرى ٠٠

رفعت الى وجها شاحبا ، خائفة قليلا ٠٠

ـ مرة أخرى ٠٠ أرجو أن تكون رقيقا ٠٠

اخضرار عينيها مشوب بخطوط داكنة ، جذور الشعر نابتة تحت حاجبيها الرقيقتين ، والقصة جافة مرتجفة على جنبها الشمعى ٠٠ لكننى هذه المرة مملوء طيبة فى داخلى أحبها كطفل يحب وردة نابتة فى أصيصه الصغير ٠

أمشى بجوارها متدفعا مثل جمل قديم ، لقد عبأت نفسى بالطعام كالمزكيبة ، أنا لا آكل انما التهم التهـــاما مثل الحيوانات المجترة فى سهوب الاستبس القديمة ، تلتهم طعامها وتفر قبل أن تفترسها الأسود ، لابد أننى أبدو حينئذ أبلها مذعورا ، مثل بقرة ٠ ضحكت وكنت فى داخلى غارقا فى الضـــحك ، رفعت الى وجههـــا مستفهمة ، قلت من خلال ضحكاتى الخافتة ٠

ـ لقد فهمت أشياء طيبة من مدرس المرحلة الابتدائية ٠٠

ـ أحقـــا ٠٠

ـ كان يحكى لنا عن الحيوانات المجترة ٠٠ تعيش دائما فى ذعر ٠٠

أكتافها نحيلة رقيقة الخطوط ، شعرها الأشقر الباهت مجموع لأعلى ماعدا خصلات خفيفة على رقبتها النحيلة ٠

ـ نعم ٠٠

ـ أليس ذلك محزنا يا الزبث ؟

ـ نعم اذا تأمله الانسان قليلا ٠٠

حرارة النهار ماتزال كامنة فى الأسفلت ، ينفثها كأنما يتنهد مرتاحا ، لا عابرين ، سيارة تمرق بين آن وآخر ، الاركان والزوايا

المعتمة تشد الانتباه ناحيتها ، أحدق فيها ، تحط فى النفس كآبة ورجفة خاصة ٠

أخذت يدها فى يدى ، هذان الصفان من العمائر شـــاهقان مجدقان فى سكون ، لكنه سكون يثقل القلب ، أمشى بجواره حذرا ، تكة صغيرة وتتفتح فى هذه المبانى الهائلة القابعة آلاف الأبواب ، وتتدفق آلاف الخلائق ، وتتفجر الضجة المروعة ٠

ـ الزبث

ـ نعم

مشيت بها أعبر شارع رمسيس الى الضفة الأخرى غير ملتفت الى الاشارة الحمراء ٠

ـ عندنا لا نخالف قواعد المرور أبدا ٠٠

ـ أما أنا فأحب الليل ٠٠ يمنحنى فرصة مخالفة القواعد ٠

ـ ماذا ٠٠ ؟

ـ أسألك ٠٠ ألا تخافين القواعد ٠٠ ألا تكرهينها ٠٠

ـ ٠٠٠ أية قواعد ٠٠ ؟

ـ القواعد ٠٠ هكذا ٠٠

ـ لم أفكر

وأنا أيضا لا أفكر ، لكن ثمة شىء صغير فى داخلى ، صغير لا يلحظ ، مختبىء ، كامن ، يقول « لا » دائما ٠٠

ـ فى العادة ٠٠ نحن طيبون ٠٠ فلاحون طيبون ٠٠

ـ أحقا ٠٠

وابتسمت لى ماكرة ، وأنا لم أبادلها ابتسامتها ، غرقت فى تصور غريب ، فثمة فلاح ، فى قرية من القرى ، فى عقر دار مظلم مختبىء ، فلاح زرى ، طاقيته متسخة بالعرق والتراب ، معلول شاحب كئيب الملامح ، يملك سرا رهيبا ، يتوضأ باللبن ، يبول على الكتب المقدسة ، يستحضر من قاع العالم قوى شريرة سوداء جبارة، يسخرها لأمره ·· ، أحدا لم يعرفه ، أحدا لم يره أو يدخل داره ، لكنهم يحكون عنه فى همس خائف عندما يهبط الظلام ·

ـ أنت تفكر ··

مسحت قطرة باردة من العرق على جبينى ··

ـ انه الليل ·· والسكون ·· يجعلنى ·· أفكر ··

ومن بعيد كان صوت ينمو ويقترب ، قرقهة عربة كارو قادمة ، محملة بأعواد الذرة الخضراء ، السائق ألقى على كتفه السوط ونام ، والحمار كذلك يمشى نائما ·

ـ انظرى

ابتسمت تتأمل ، حينما حازتنى العربة أنتزعت كوزا صغيرا طفلا ، نزعت القشرة وتهدلت شوشته الحريرية على أصابعى والحبات المصفوفة تحت القشرة بيضاء لؤلؤية ··

ـ انظرى لهذا ··

ـ اعرفه ·· اننا نأكله ·· أنه ليس طبقا على مائدتنا ·· لا نأكله فى المنزل ·· لكن ونحن صغار ·· نقطفه من العيدان ·· ونأكله ··

وجهها يشع ابتهاجا وهى تحكى ، وأنا أتصورها ، فستانها طائر حول ساقيها تجرى نحو غيط الذرة ، لو كنت هناك ، عند آخر

الشوط ، وهى مندفعة نحوى ، قلبى يطير يســـتقبلها آخذها الى صدرى ، جميلة هذه الشوارع حينما تكون خالية ٠

ـ تعرفين ٠٠ نأكله نحن أيضا ٠٠ لكن « نطهره » على النار انجليزيتى لا تسعفنى ٠٠

ـ أقول تصورى ٠٠ فى الحقل ٠٠ فى عز الليل ٠٠ نضع نارا ضخمة ٠٠ لها أزيز ٠٠ تلفح وجوهنا بالسخونة ٠٠

تنصب لى مشدوهة قليلا

ـ ان ذلك مثير

أما هو فكان يقف عملاقا هائل الكتفين مستندا على عصاة ابن عمى ، يحدق فى النار ، يخيل الى أن بعينيه خيـــالا غريبا ، أناديه يهب طائعا ، دمثا كفتاة صغيرة ، فى قلب الليل أخبط على بابه ، يأتى الى ، أنطلق وهو خلفى يهرول ، زمان القلق والعذاب والوجيعة التى لا برء منها ، نذرع الحقول ، نعبر القنوات ، نشعل النار ونتأمل ألسنتها اللهابة ، فى المرة الأخيرة ، سفرتى الأخيرة الى القرية ، وجـــدته ملقى موثق بالحبال فى غرفة معتمة ، ذليل العيون فى قيوده قالوا أصابه جنون ٠٠ كاد يفتك بأمه ٠٠ قيدناه ٠

ـ أتعرفين

ـ نعم

ـ الناس هنا يمرضون ٠٠ أعنى كثير منهم ـ خاصـــة فى قريتى ٠٠ مرض اسمه الملاريا ٠

ـ مهه

ـ أنا أصبت به مدة خمس سنوات ٠٠

ـ ألم تعالج ·· ان علاجه ليس صعبا ·

ـ آه ·· ليس صعبا ·· لكن ·· نوعا منه خبيث

ـ أحقا ··

ـ الميكروبات ·· تصعد للمخ ··

ـ ······

ـ تجعل الانســـــان ينسى · تجعله كذلك يتذكر ·· بطريقة غريبة ··

طوحت ذراعى فى الهواء بقوة ·· تنهدت بمرح وارتياح ·· قفزت لأعلى لأطول فرع شجرة لبخ ، أنتزعت ورقة ، بسطتها على كفى ، يأسرنى نسقها ورقتها مررت بها على وجهى ، ناعمة مرهفة ·

ـ جربى هذه

استسلمت للمسات الورقة على وجهها وذهب عيونها يستضىء من مصباح الشارع ··

ـ هذا هو النيل

تطلعت ، عبرنا الشارع الكبير الى رصيف الكورنيش ، عربات الترمس ذات المشاعل ، الجمرات تتوهج تحت كيزان الذرة ، والشرر يتطاير ، السرور يترقرق فى داخلى ، لا أملك سوى قرشين ونصف ·

مددت عينى الى سطح النهر المائل العظيم الامتداد المؤطر فى الضفة الأخرى بمئات الأضواء ، يحط فى قلبى ركاما من الخواطر الغريبة ·

ـ لكنها مشكلة اللغة

ـ ماذا تعنى

ـ نتحول فقط ‥ الى قطعتين من أى شىء

ـ لكن ‥ لماذا ؟

ـ مشكلة اللغة ‥ مشكلة اثنين لا يجيدان لغة واحدة ·

ـ آه ‥

تمشى هادئة ، مفكرة ‥ ربما ، ترىبماذا تفكر ، هل تشغلها نفس الفكرة ، هل نحن متباعدان جدا ، لكننى أكون رقيقا وأنا معها، ممتلىء القلب بالكلام ·

عابرون قليلون ، يصمت الواحد منهم قبل أن يصلنا ، يظل يحدق فينا ، تتسع المسافة بيننا قليلا ، منطقة مشحونة بالتوتر تشلمنا حتى يمضى ، نعود نلتئم ، يالها من عيون ، ترى هل لاحظت كيف يحدقون ·

لكننى أنا أعرف ، أعرف الرؤى المخبولة ، المكنونة تحت طيات التأثم والرهبة ، أحلام لاهثة مفزعة ، شوهاء ، كتلك الرسوم على جدران المراحيض ، أعرفها ، وكم وقفت أمامها واجفا ويدى تبحث عن قلمى ·

وهأنذا أمشى مستعذبا هذه النسمات الليلية المبلولة ، أمشى مع فتاة ذهبية العينين ، تنوشنى النظرات من كل جانب حتى تخبو طلاقتى ·

ـ هل نجلس هنا ؟

تجاه بضعة قوارب راسية

ـ لا مانع

المرسى بارد ، والنهر شاسع غامض ، يرتجف برتابة لا تعرف الملل كتنفس عملاق ·

ـ ألا تبدو نائمة

ـ ماذا ٠٠ ؟

ـ هذه المراكب ٠٠ أشرعتها مضمومة ٠٠ وساكنة هكذ ا٠٠ الا تبدو نائمة ٠٠

ـ آه ٠٠

فسدت ملاحظتى ، وكنت أظنها شاعرية ، ظللت أعيدها وأكررها لتفهم ٠٠

حتى صارت شيئا سمجا ، كنت أنوى أن أقول أيضا أن هذه المراكب تنام على ذراع النيل وغير ذلك ، لكن هذا النهر يخيفنى كلص ، به قوة خارقة يحتويها داخله ، ، يخفيها تحت ذلك الاهاب اللامع ٠٠

ـ أنت تفكر ٠٠

المصباح ينير وجهها ، شاحبا ، ومن مساحة الشحوب تطل عيناها شمسان ذهبيتان ـ صغيرتان ، وتلك القصة على جبينها ، لو أزيحها بيدى ، لو أضمها الى صدرى ، أوصل قلبها بقلبى ٠

ـ هل عندكم أنهار يا المزبث

ـ أوه ٠٠ كثير جدا ٠٠

اذن هـ ىصغيرة وعصبية وصخابة على شطآنها ناس من الذهب مثل الزبث ٠

ـ تصورى ٠٠ نحن عندنا نهر واحد ٠٠ فيه كل هذه الكمية من الماء ٠٠

ـ ههه

وفيه هذه الكمية من الجلال والغموض والرهبة ٠

ـ ٠٠٠ هل نقوم ؟

ـ لا مانع ٠٠

ومددت لها يدى ، التفت أصابعى حول كفها الصغير ٠٠

ـ يدك قوية يا الزبث ٠٠ قوية وصغيرة ٠٠

ـ أخذت ذلك من الأسرة ٠٠

ـ يد فــــلاحة

ـ أن أبى مزارع

ـ قلت لى ذلك

ـ لكننى الآن مدرسة فى قرية صغيرة

ـ تقيمين بها وحدك

ـ نعم ٠٠ فى بيت يملكه عجوزان ٠٠ لى شقة صـــغيرة ٠ غرفتان ٠٠ أحيانا أصاب بالملل ٠٠ أنزل ، أجلس قليلا مع صاحبى البيت ٠٠ أحيانا آخذ عربتى الى قرية صغيرة مجاورة ٠٠ عند صديقة لى ٠٠ أسمع كونشرتو البيانو (الامبراطور) ٠

تحكى فرحة وجهها يشع ابتهاجا ، وأنا أكاد أخطفها وأطير ، آخذها الى صدرى وأفر هاربا ، أغمضت استرجع ضربات البيانو القوية ، أمسكت يدى ٠٠

ـ كأنك تستمع للموسيقى داخلك

ـ آه ٠٠ حقا يا الزبث ٠٠ أننى أحب بيتهوفن ٠٠ روح مفعمة حزنا وعنفا ٠٠

ضغطت يدى بقوة

ـ اننى سعيدة أنك تحب بيتهوفن

ـ أتعرفين يا الزبث · ليتك تسمعين سيد درويش

ـ ما هذا ؟

حزن شغيف يترقرق فى روحى

ـ أنه أعظم موسيقيينا ·

ـ ····

أحسست عجزا مؤلما ، لغتى لا تسعفنى لأقول

ـ أريد أن أقول لك ·· لكن المسائل ·· هكذا ·· لكن أسمعى ·· كان مملوءا حزنا وابتساما ·· مرارتنا من نوع غريب ·· لا أدرى بالضبط ··

ـ لكن ·· ألستم · ·اننى لا أفهمكم حقا ·· لقد كنت فى حى القلعة ··

ـ آه ··

ـ الناس فقراء وقذرين جدا ·· وكسالى

امتلأ قلبى بالقهر مثل امرأة ثكلى ، شبكت يدى خلف ظهرى وبدأت أسير خطوات ثقال وكأنما أكلم نفسى ·

ـ كان سيد درويش يضع أغانى جماعية حزينة ·· الحرفيون الذين فقدوا أعمالهم بعد الاحتـــلال الانجليزى ·· حينما أغـرقت بضائع أوروبا سوقنا ··

كأنما أكلم نفسى ، أو ألقى مرثية حزينة ، أو مرافعة بائسة أمام قضاة جائرين ، أسير خطوات ثقا لواللحن يرن فى داخلى ، كأنه عديد ندابه فى مأتم لا ينفض :

مين ف اليومين دول شاف تلطيم   زى الصنايعية المساكين

ـ الناس هنا كسالى

صوتها واهن كأنما تعتذر ، لم أبال باعتراضها ٠

ـ وضعت روح الشــــعب وموهبته فى ذلك الحذاء الحديدى اليابانى ·· لأى شىء ينشطون · ناس كثيرون ·· الأرض قليلة ·· ولا توجد مصانع ·· لا أحد يساعدنا ·· لا أحد ·· أننا نحارب قدرا رهيبا ·· بعد مائة سنة من الحزن ··

لحقت بى أمسكت يدى ، وقفت ونظرت لها ، أشرعت لى وجها مبتسما مليئا بالود عيناها حلم ٠

ـ الزبث ·· أنت هنا ·· فى الشرق ·· أرض افريقية ·· عالم مختلف ··

ـ آه ···

ـ تعالى نحلم يا الزبث ·· تعالى نغمس أيدينا فى النيل

وضعت قلبى كله فى ابتسامة ، أخذت يدها طاوعت ٠

عبرنا السور الصغير وتحدرنا على الصخر المصفوف حتى الشاطىء الطينى ، النيل من هنا شـــاسع أسود ، يبعث الرهبة ، انعكاس المصابيح على الضفة الأخرى كأنه عيون غرقى تموت ، دست على قطعة حجر ناتئة ، مددت لها يدى ، مدت ساقها تبحث عن مداس لقدمها ، وخطوت أنا باحثا عن مكان لقدمى الثانية . ترنحت واهتزت الصخرة تحت قدمى بقوة ، فقدت هى الأخـــرى توازنها وداست فى الماء وملأتنى بالرشاس ، مائتنان ضحكا قفزنا الى الشاطىء ، وقفت ألهث هي خفيفة كطائرة من الورق لا تلهث أبدا ٠

ـ أوه ٠٠ لقد تلوثت ثيابك

ـ لا تبالى ٠٠ تعالى ٠٠ نجلس ٠٠ هكذا

جلسنا القرفصاء على الشـــاطىء الطينى متجاورين ، مددت يدى فى الماء ، بارد ، أخذت منه أغسل وجهى ورقبتى ، هى تخفى يدها فى الماء صانعة كركرة صغيرة ٠٠ ، ثم قمنا تسلقنا عائدين الى الشارع نسوى ثيابنا ٠

باخرة ترسو فى النيل أمام سميراميس عالم غريب ، أضواء وموسيقى تهمس خافتة ، ربما مقاعد من المخمل الأحمر الفاخر ، أكواب من الكريستال يتندى خارجها بقطرات فضية ، نذل لطاف ، يبتسمون ويأتون بكل ما تريد ٠٠ ، أمتلأت حنانا رفافا كالحزن ، لو كنت هكذا طويلا نحيلا عريض الكتفين أرتدى حلة فاخرة ، أوزع الهبات وأحصل على الابتسام والخضـــوع وهى لابدة فى جنبى ، عظامها نحيلة رقيقة كطفلة ٠

انبعث من خلال الشجر

ـ بص ٠٠ أنا ماشى حافى ٠٠ الجزمة أتقطعت ٠٠ رميتها فى النيل ٠٠

أسود ، عيناه خرزتان لامعتان ، مضطربتان ، صوته ولولة باكية نافذة ٠٠

ـ شفت ٠٠ رميتها فى النيل

ـ أهلا ٠٠ أهلا

صديقى الكاتب النوبى الضئيل الحجم ، التفت أقدمه لها ، كانت تنظر خائفة ، لابدة فى جنبى :

ـ صديقى ٠ ٠صديقة ايفلين

هزت رأسها أما هو فقد نظر لها ساهما قليلا ثم مشى مخافتا، ونحن سرنا صامتين ..

لكن رنة صوته تعيش داخلى ، وأنا أراه يمضى مبتعدا ، يمشى بطريقة خاصة كأنما يتسلق حائطا .. ، همست لها وأنا أنحنى عليها ، وجهانا متقاربان ، يكاد أنفى يلمس أنفها .

ـ أليس فيه شىء ما .. عذاب ما

ـ .....

ـ لقد خفت منه

ـ .....

ـ انه ليس مخيفا .. أنه حزين .. كلنا حزانى .. بشكل أو آخر ..

مشينا على كوبرى قصر النيل ، كل آن تمر عربة منطلقة يرتجف الكوبرى تحت أقدامنا والشطآن بعيدة ، صفوف صفوف من المصابيح ، اتساع عميق من الماء اللامع الساجى ، وهى الى جانبى أحس ليونتها ورقة عظامها كأنها حمامة مزغبة .

عند منتصف الكوبرى ، استندت على السياج الحديدى .

ـ انظرى

النيل ينساب ، تحس بكل جبروته الناعس تحت هذا الاهاب اللامع الرجراج ، يشدك يهمس لك .. ، تذكرت الطبيب الشاب الذى أبتلعه النيل بسيارته فى صميم الليل ، التيار فى قاع النهر سريع ، عبث بالسيارة ، مزقها اربا ، مرغها فى الوحل ، أغمضت عينى على الأصوات ، نظرت الزبث للماء وسهمت قليلا .

– أليس هذا مكانا صالحا للانتحار ؟

همست

– أنه رهيب حقا

أرمق وجهها ، عينيها ، ثم أمضى أجرجر قدمى ··

– قل لى ·· هل تعتبر الانتحار شجاعة أم جبنا ؟

أخافنى سؤالها

– انه الدمار

– ماذا ·· ؟

– اذا صمم شخص على الانتحار ·· فانه ·· مائت قبلا ·· أو هو يعيش دمارا مروعا فى داخله

– آه ··

– تعرفين ·· أكتب قصة عن فلاحة تنتحر ·· اسمعى ·· هناك شىء يجب أن تعرفيه ·· فى كل قرية يوجد بئر قديم مهجور ·· زمان ·· ·· من زمن طويل ·· لم يكن ماء النيل كثيرا هكذا كان معظمه يضيع فى البحر ·· كانت القرية تمضى شهورا طويلة دون ماء ·· تحفر بئرها ·· لكن الماء أصبح كثيرا ·· والآبار جفت ·· هجرت ·· أصبحت مصادر للمخاوف · الأشباح · كل الأشياء غير الحقيقية ·· هذه الآبار تعيش فى خيال كل قروى ·· ترهبه ·· لكن فلاحتى ما عادت تخا فالبئر ·· ذهبت اليها ·· احتضنت الماء ·· ضمها اليه ·· أخضر ·· له أنياب خضراء ·

– انتظر ·· اسمع ·· هل تستطيع أن تقول ذلك بالفرنسية ·

– لا أظن ·· أحاول ··

ـ اسمع سأقول لك ما فهمته وأنت تصحح لى

ـ ....

ـ امرأة أصبحت صديقة الساقية .. ؟

ـ نعم

ـ لكن .. أن ذلك مخيف .. لماذا .. ؟

ـ لأنه لا يجب أن تكون ثمة ساقية مهجورة فى القرية

ـ .. انها هناك .. ؟

ـ لا .. لقد ردمت

ـ اذن .. لماذا تكتب عنها .. ؟

ـ انها لاتزال فى قلبى .. تملأ حياتى بالأبخرة الغربية والمخاوف ..

ـ انك غريب ..

ـ اننى فلاح مصرى

ارتكنت على سياج الكوبرى ، امتداد النيل والأضواء والمبانى الرائعة على لضفة .

ـ انظرى

ـ ... رائع

ـ لكن مذه ليست مصر ، مصر تعيش فى أكواخ طينية مظلمة فى أعماق الريف .. هناك تعيش .. كسيرة .. تلبس الأسود .

ـ ....

ـ أتعرفين ·· كل زعماء مصر تقريبا أتوا من القرية ·· عرابى ·· سعد زغلول ·· ناصر ··

ـ لكن ·· حياتكم السياسية ·· تبدو ·· مخيفة · لا أفهم حقا ··

ـ الزيث ·· ان أوروبا ليست العالم ·· هنا عالم آخر له أساليبه ·· أنتم تناقشون ·· تلقون كثيرا من الخطب ·· يأتى ناس الى السلطة ويذهب ناس ·· لكن النظام هو ·· هو

ـ تلك هى الحرية السياسية ··

ـ انها شىء مضحك لنا ·· نحن نختلف هنا حول أشياء كبيرة ، اما أن نعطى الأرض لبضـــعة باشـــوات ·· أو لملايين الفلاحين ·

نظرت فى وجهها بشدة فجأة ، تجتهد لتفهم ، قلقة متشوقة ، اهتز قلبى لها ، أمسكت بيدها تركتها لى ·

انتهينا الى ذلك الزقاق الضيق بين النيل وحديقة الاندلس ، جلسنا على الجدار ، سطح النيل قريب معتم يهمس همسا لا نهائيا ·

ـ لنرجع ··

قامت ، أمسكت يدها ، التف ذراعى حول ذراعها وتخللت أصابعى أصابعها ، خفيفة كورقة ذراعها نحيل مطواع ، لفته حول خصرى ، انبسطت راحة كفها على التصقت بى ، ضربات قلبى ترف على ثديها الملىء ، اسمع بكل جسدى وجيب أنفاســـها ، همس خلاياها ، يقظة خاصة تمشى فى أعضائى ··

بحذر غاية فى التوتر تمشى أصـــابعى على حـــرير ثوبها ، تتحسسها ، وتحس دبيب هروبها ـ الخافت من اللمسات المترددة

الملهوفة ، واسراع أنفاسـها ، المســافة البينة الدقيقة التى تولد وتتسع تفتق التصاق جسدينا ٠

أغمضت عينى ، شىء له طعم الخوف ، برودة تدفع الدماء فتزحم العروق ، أمسكت كفها لاتزال مطاوعة ، احكم بسطتها على ضلوعها ، طوقت نحول كتفيها بذراعى ، دفعت جســدها الرقيق الى حضنى ، تتلوى ، تهمس ٠

ـ حكيم ٠٠ لا أريد ذلك ٠٠ لا أريد الأمر هكذا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ تتملص وتتهدج أنفاسها ، خلاياى تدب باشتهائى دبيبا مندفعا خارقا ، أغمضــت عينى على فوضى مرعبة ، تقاوم بعنف تملصت منى وقفزت مبتعدة كنمرة ٠٠

ـ ماذا تريد حقا ؟

صرخت وهى تنظر الى بشراسة وحس مفترس

انفثأ هياجى ، همدت ، مثل قاطرة فتح صمام بخارها ووقفت بروانه فى الليل ، ٠٠ الليل ، ٠٠ الليل والجدران وأوراق الشــجر ونتف الزبالة ، الكون يحتوى على كمية مؤسية من السكون أسير ساكنا ، كأنما من داخلى ، دون حركة ظاهرة ، ووقع أقدامى رنين مكتوم فى أغوار الصــمت ، وكلماتها المنفعلة رجفات تحت الثقل الجاثم ٠

ـ أننى لا أفهمك حقا ٠٠ هل تأخذنى حينما تريد ٠٠ لكننى انا لا أريد ، أتأخذ الأشياء لنفسك هكذا ٠٠ ؟!!

ـ ذلك هو المتحف المصرى

ـ أعرف ٠٠ لكننى أسألك ٠٠ ألا تجيبنى

ـ ستعبر هذا الشارع

– هل تعيدنى الى الفندق فورا

– أعتقد أن هذا الشارع يذهب الى هناك

– أرجو أن تكون متأكدا

– سأسأل

رأيت رجلين سألت أحدهما

– وحياتك يا أخ ·· دا رايح شارع فؤاد

– أيوه يافندى ·· تنك ماشى على طول

قلت لها

– هذاالشارع هو طريقنا

مشينا صامتين ، فجأة سألتنى

– لماذا أنت صامت هكذا ·· تجعلنى اعتقد اننى المخطئة

– لا ·· أنا المخطىء ·· لكن ·· ما معنى هذا ·· أن يكون ذلك خطأ ·· وذلك صواب ··

– أن تأخذ فتاة بالقوة ·· خطأ

– ذلك مدرس جدا ·· انك لن تفهمى

فأنا لا أفهم ، كيف يندلع ذلك الجنون ، يحتاج كل التوازنات والتناغم ··

– لكن لماذا ·· لماذا لا تنتظر قليلا ·· اننى جزء من المسألة .

حزينا بائسا مختنقا .

– آسف جدا ·· وحزين ·· صدقينى ··

ـ لم أرد أيذائك ·· لست بشعا الى هذا الحد ·

كانت بعيدة ·· بعيدة ، ملوله ، تعبه . ضحكت أنا ضحكة فارغة

ـ كل صباح أقول لنفسى من اليوم سأكون أنسانا آخر ·· أجمل ساعات يومى هو الصـــباح لكنها ·· أعنى ·· سرعان ما تجرفنى الأحداث ، الأشياء الصغيرة والضجيج ·· أن العالم حولى صخاب مروع ··

ـ هل الفندق قريب ·

ـ انه شىء صغير ·· مختبىء ·· كامن ·/· لكنه فجأة ينفجر ·· يجتاحنى ·· الزبث اننى ساعتها لا أرى أمامى بوضوح ·

ـ ····

ـ لقد فشلت فى الامتحان الثانى ·· ؟

ـ ·····

ـ فورا ستحنى ·· ونجد الفندق

ـ حقا ·· ؟

ـ هاهوذا ··

الثالثة صباحا ، وأنا مائت ، اجهادا ، لا شىء فى داخلى ، لا فكرة واحدة أريد لو أغمض عينى وأترك نفسى لأهوى ·· قالت :

ـ سنقول ليلة سعيدة ·· أليس كذلك

نظرت فى عينيها ، لا جدوى ، أمسكت بيدها ورفعتها الى فمى وأودعت شفتاى بسطت كفها ، دافئة طرية ، تركتها بهدوء وتسللت منصرفا دون أن أعاود النظر الى عينيها ·

مشيت ، فأنا لا أستطيع بانصاف القروش الخمسة أن أستأجر تاكسى ولم يعد ثمة أتوبيس ٠

الاسعاف ، مستشفى الولادة ، بائع عنب نائم والكلوب يوش فى خفوت ، لا عربات ولا مارة النور مفروش على الأسفلت فى سلام فوهات الحـــارات معتمة فى جانبى الطــريق الكبيرة ، الخطوات العسكرية ثقيلة متأنية آكيدة ٠٠

ـ فين بطاقتك ؟ ٠٠

ياله من سؤال يفرغ الأحشاء ، يجعل الانسان يركع ، متهم ، ضال ، أكذوبة ، تحسست جيبى الخلفى ، البطاقة هناك استعرضت فى رأسى نمشها وتعاريج خطوطها ، لا شىء محقق آطراف أصابعى مثلجة ، خدرة حين تحتك بصوف بنطلونى ٠

زحفت نحو العسكرى ، حذائى يرطم الأرض بوهن وتردد ، حاذيته ، لابد أن أقول شيئا ٠٠

ـ السلام عليكم

ـ عليكم السلام

عيونه ذابلة بالنعاس ، ليته ينام ، يعلق طبنجته على مسمار فى الحائط ويخلع حذاءه وينام وفى الصباح يأخذ أشياء ويذهب لعمله ٠

آنا مجهد كبقرة عجوز ، متهدم ، أريد أن تنسال دموعى ، خائف وبردان ، راجع الى غرفتى على السطوح ، فارغ مهزوم ، حتى صورتها لا أستطيع استحضارها فى ذهنى ٠٠ ، فقط أريد أن أنام ٠

ـ ٣ ـ

أقرأ بين يدى ايفلين وهى تصحح لى أخطائى فجأة قالت لى

ـ أسمع ٠٠ الزبث مبسوطة منك

سقط الكتاب من يدى

ـ مش معقول

أحدق فيها جامدا كأبله وتبادلنى نظرة باسمة

ـ مش معقول

ـ ليه ٠٠ ؟

ـ كنت يئست منها خلاص

ـ عملت أيه ٠٠ ؟

ـ اتسرعت

ـ فى سقارة ٠٠ ؟

ـ وليلة الحفلة ٠٠ كانت فرصة أصلح الخطأ ٠٠ لكن

لكن الندم لا يأكلنى الآن ٠٠ كالسرطان ، أصـــبحت المسألة فائتة ، فائتة ومنقضية ٠

ـ ايفلين ·· قالت أيه ·· بالضبط

ـ قالت انك خوفتها ·· لكن يبدو أنك مش وحش للدرجة دى ·· وقالت انها عاوزة تشوفك لما ترجع من الصعيد ··

جلدى ضائق بانفعالى ، أكتمه بطاقة هائلة ، أريد أن أتحرك حركة واحدة عنيفة ، لو كنت فى الخلاء لجريت مائتى متر فى نفس واحد ·

وهأنذا مع ايفلين ، نسرع الى المحطة ارتدى بذلة صيفية من قماش أبيض ، أشبه فيها أحد الهنود ، هؤلاء الذين رأيتهم فى الافلام يفتتنون الأوروبيات ، وصلنا متأخرين ، القطار جاء منذ مدة والركاب تفرقوا ، أتصلنا باللوكاندة ، قالوا نعم : هم هنا ، مهتاج مثل نحلة خلف لوح زجاج ، قفزنا الى تاكسى طار بنا فى زحام الشوارع ·

فى صالة اللوكاندة كانوا هناك ، يتحركون يقضون حوائجهم ، وقفت مؤدبا أكبس نفسى فى هدوء صارم ، لمحتنى حيتنى بهزة من رأسها ، ثم مشت الى :

ـ هل نمضى ·· ؟

ـ نعم ··

وخرجنا ، تكلمنى بعادية شديدة كأننا متعارفين منذ سنين ، حملت عنها حقيبتها ·

ـ الى أين ؟

ـ هيلتون ··

عرضت أن أحمل أشياء ايلين ، وافقت ، صـــوتها فيه رنة بكاء ، عيونها دهشة قلت لالزبث ·

ـ كيف كانت رحلتكم

ـ جميلة لكن التراب والحر ··

وتدخلت أيلين وهى تهز رأسها مغمضة عينيها ·

ـ أوف ··

ـ هل رأيتم السد العالى

صاحت أيلين معجبة

ـ رائع

وأبتسمت الزبث بهدوء ممتلئة اعجابا

ـ الآلات الهائلة ·· آلاف العاملين ·· هزتنى حقا

ـ المصريون هناك ·· لم يكونوا كسالى

ضحكت الزبث لى

ـ لا ·· حقا ·· لم يكونوا كسالى

قلت

ـ ان كان ثمة مصرى كسول ·· فهو أنا ·· تمشون بسرعة ·· لا أستطيع اللحا قبكم

ـ اننا مستعجلون ··

على باب هيلتون قلت :

ـ هنا يبدأ دوركم كمرشدين لى

ـ الا تعرف المكان

ـ سيدتى اننى شا بفقير ·· يبحث عن عمل

المكان نظيف فاخر وثير ، تستطيع أن تجد كرسيا مريحا فى كل ركن ، أحببته ، أود لو آتى كل يوم بورقى وأنتحى جانبا ، وأكتب عن قريتى القذرة الكئيبة كلاما يثير البكاء ٠

تستبدلان نقودا وتشتريان بطاقات بريدية عادتا الى ، وقفتا أمامى وأنا مستريح فى الكرسى لا أريد أن أبرحه ٠

ـ ألا تقوم ؟

ـ نعم ٠٠ الزبث

على الباب الزجاجى شاب يرتدى ملابس غربية ، أنحناءاته قردية تثير الاشمئزاز لو أرتدى قميصا وبنطلونا وابتسم برقة واعتزاز لكان أجمل ٠

رتل من سيارات الأجرة يقف بعيدا ، تحركنا نحوه ، أشرت أوقفهما ، لوحت للتاكسى بعظمة فجاء فورا ، ربما هذا القرد على الباب هو الذى جعلنى أتصرف هكذا وربما هذه هى كل جدواه ٠

ركبت ايلين فى الكرسى الأمامى ، خلت لنا المقعد الخلفى ، مددت ساقى وأرحت نفسى تماما ، هكذا يحس العريس دون شك ، والى جواره عروسه صغيرة وجميلة ، أتمنى أن أضمها أضع خدى على خدها ، أغمض عينى وأنسى العالم ٠

ايلين تتأمل كل شىء بلهفة ، وأنا أبادل الزبث حديثا هادئا ناعما ، والتاكسى الصغير ينزلق بين الزحام كطفل شقى ٠٠ نزلت ودفعت الحساب ٠

نحن فى أول شارع الموسكى ، زحام من المشترين والبائعين والسائرين ، زحام من البضائع والصيحات والحياة ، مقبرة الوزير (تى) وقد دبت فيها الحياة ، المصريون وقد مرت عليهم آلاف

السنين ، عشرات من الملوك وجيوش من الغزاة ، هاهم يحبون الكثرة من كل شيء ، من الولد والبضائع والنكات والتعليقات السافرة . نحن فى مقبرة الوزير تى ، لكن هنا حياة وليست صور ، هنا الحياة بكل امكانياتها المذهلة على جذبك وجهدك وانعام خلاياك بالحيوية والحركة والحبور .

مرحا أداعب كل مار ، أتفحص كل بضاعة ، أساوم كل بائع يعرف من النظرة الأولى اننى لن أشترى ، نظرته العدائية الأولى ، لا تستغرق جزءا من الثانية ، ثم يلمح الفتاتين معى ويدرك أننا لا نريد سوى أن نلهو، أن نضحك وأن نداعب، يشترك معنا فى اللعبة، يعرض علينا مالا يمكن أن نشتريه ، ويطلب أثمانا خيالية ، ايلين تضحك مغرقة فى الدهشة والزبث تلبد فى كقطة ، وتنظر الى بعينيها الذهبيتين المليئتين بالمرح ، وابتسامتها الهادئة لا تتحول ابدا الى ضحك هادر .

- الزبث

- نعم

- فى عينيك دائما كلام أكثر من الذى تقولينه

- أحقا

- الزبث

نظرت الى مبتسمة ، قلت بالعربى

- ازيك

ردت فرحة وبالعربى

- أزيك

اغرقت مقهقها بالضحك

أمشـــى تثقلنى الحقائب والكاميرات ، بجوارى تقرقع عربة كارو سائرة · ألقيت بحملى عليها متخففا ، العربة يقودها صبى صغير وعليها بضـــعة صبيان آخرون ويجرها بغل دقيق الحجم . آمسك واحد من الصبيان أشيائى وسندها بيده ، سبقتنى العربة . اضطررت للجرى وراءها والزبث تجرى معى ، ظللت أجرى وهى فى يدى والصبيان يضحكون منا ·

أغرقت فى الضحك ، ولأول مرة أرى الزبث مقهقهة مائتة ضحكا قفزت راكبا بجوار السائق غير مبال ببذلتى البيضاء ، الزبث تجرى مددت لها يدى ، قفزت الى جوارى ملتصقة بى ، ضممتها الى بشدة ، أخذت العنان من السائق ، ألهبت ظهر البغل ، انطلق كالشيطان ، العربة تتقافز على بلاطات الشـــارع الناتئة ، قام صـــبيان العربة واقفين يصرخون ويصفقون ·

ـ هيه ·· هيه ·· شى ·· شى ··

والناس على الجانبين وأمام الدكاكين يصفقون ويهللون لنا ، التفت بحثا عن ايلين راكبة على ذنب العربة ، مرتبكة فرحة ، اهتزاز العربة يعريها · وهى عاجزة عن السيطرة على نفسها ، وأنا أغرقت فى الضحك ، الزبث ملتصـــقة بى متوهجة الوجه ، العربة تسير بغاية السرعة والشارع مهرجان من الصياح والتصفيق ، حتى أنتهينا الى حارة هادئة ، أبطأ البغل من تلقاء نفسه حتى وقفت العربة ، نزلنا نسوى ملابسنا ونحمل حاجاتنا ·

مشينا نتمايل ، لا نفكر فى شىء ، على وجهى الفتاتين السرور والتعب من ركوب العربة ، ايلين تقول :

ـ أوه ·· يا الهى ·· آننا نتصرف بطريقة غريبة ·

الزبث تنظر اليها مبتسمة ثم تقول لى :

ـ لو رآنا الباقون ·· أنهم يدهشون حقا ·

لكننا نمشى لا نسـأل الحارة الى أين تقودنا ، صـامتين مستكينين الى جوها السحرى الظليل القليل الضوء الرطب العبق برائحة خاصة عتيقة ·

نتأمل الحى القديم ، الجدران الرمادية ، سقط الملاط وبقت مربعات الحجر الجيرى داكنة صامدة ، الشبابيك ذات الشبك الحديدى الغليظ المؤطرة بتهـاويل من الرخام غاية فى الروعة ، المشربيات ، المقفلة بالارابيسـك ، خشب الأبواب الغليظ المتآكل الترائب ، المحزم بالحديد وغلاظ المسامير ·· ، تحدرت الى باب غائر فى أرض الشارع ، نقش على خشبه القديم مائت متآكل بجهد ليقول « مرحبا بالزائرين » ·· ، الترحيب يصك قلبى ، الترحيب المحمول على قلب ذاك الباب العجوز ، الزبث وايلين تنظران الى، دهشتين ·

ـ ماذا ؟

ـ ذلك الباب ·· انظرا ·· يحمل نقشا لطيفا ·· كتابة ·· ترحيب بالضيوف ··

هتفت ايلين دهشة :

ـ أوه ·· غير مقعول ·· رائع

وبقت الزبث تتأمل نقوش الباب ساهمة

ـ انه بديع حقا ·· ناسكم القدامى ·· كم كانوا رائعين

نمشى يضـطرب خطونا على الكتل الناتئة ، تحدق بنا تلك الجدران بسكونها وجلالها ·

ـ مسيو حكيم

الزبث تنادى هامسة

ـ ما معنى سكت ·· ؟

ـ سكت ·· ؟ ما هذا ·· ؟

ـ ولكنه مكتوب هنا

لافتة صغيرة معلقة على الحائط (سكة كذا) أغالب ضحكي

ـ آه ·· سكة ·· يعنى طريق صغير

لكن اللافتة مرشوق بجوارها حامل يتدلى منه فانوس تعلوه مشربية ، التكورين غاية فى التأثير

ـ الزبث ·· انظرى

ـ ·· ماذا ·· ؟

ـ هناك ·· أترين ·· هذا البلكون

ـ نعم ·· أراه ··

ـ هذه الثقوب ·· الارابيسك

ـ نعم ··

ـ ألا ترين ·· ثمة عينان تبرقان ·

ـ غير معقول ·· أنه مكان قديم ، لا يبدو مسكونا ·· لا توجد عيون تبرق ··

ـ انهما كانتا هنا منذ مائة سنة أو مائتين ·· فتاة صغيرة فى الحريم ·· ترقب فتاها يمر فى هذا الشارع نفسه ·· سيتزوجها ·· دون أن يراها ·

ـ أوه ·· غير معقول ··

ـ وكان العريس يحس رجفة قلب عروسه دون أن يراها ، تمتلىء أكتافه زهوا ويمتلىء شـــموخا وتتقطر روحه حنانا الى جـــلوة العروس ، يرق قلبه ويهفو الى ذلك الريق الأنثوى بعيدا عن ملاعب الشباب الخشنة ، يحن الى عينين ، الى ابتسامة ٠

ـ انك شاعر

عيناها قمران أخضران ذهبيان ، أهدابها الكثيفة ترف ٠٠ تختلج ٠٠

ـ أنا فقط حزين ٠٠ مثل منزل قديم

ايلين تتســـــلل لتعرف عما نتحـــدث ، تحكى لها الزبث عن المشربية والعروس والعريس ، تكتم شهقات اندهاشها وتسير ٠

البضائع ساكنة فى واجهات الدكاكين ، والتجار ساكتون على كراســيهم أمام الأبواب ســــلام رائق يرين فى جو الدارة الرطب الثقيل ٠٠

كومة من الجمال الصغيرة ملقاة أمام دكان ، ترمقها الزبث مبتسمة وتهمس ٠

ـ جمال صغيرة مسكينة ٠٠ لا صحراء ٠٠ لا نخيل ٠

التقطت واحدا ، عيناه الزجاجيتان مفعمتان غباءا وجمودا ٠

ـ أليس مقبضا يا الزبث ٠٠ بعينيه هاتين ٠ ٠

ـ ٠٠ أنه يعطينى احساسا خاصا ٠٠

ـ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ أريد هذا ٠٠

احتضنته اليها ، ايلين تلمسه وتحدق فيه حذره مستغربة ٠

نجول فى الحوارى ، واجهات الدكاكين مليئة بالبضـــائع الجميلة ، الاطباق والصناديق المطعمة بالصدف ، الحرير والشاهى ، الذهب والفضة والعقيق وحجر الدم ، الحارة تضـــيق حتى لتكاد البنوك أمام أبواب الدكاكين أن تتلاصق ، زحام المتسوقين وابتسامات التجار ورائحة الشواء والعطارة ٠

فجأة وقعت أبصارنا على صفوف من أباريق نحاســـية تملأ رفوفا أقيمت على جدار ، ٠٠ رائعة صنعتها يد مرهفة حقا ٠٠٠ كيف تتطاول هكذا وتتشوف فى اتساق ورشاقة آسرة مثل « أبى منجل » أو « مالك الحزين » ٠٠ ، شىء ما فى روحنا فريد غريب ، شىء أودع هذه الأباريق ، شوق رفاف منكسر رصين ٠

الزبث تحدق فى الأباريق النحاسية بعيون لا تطرف ، صاحب البضاعة جهم معتد بنفسه ، وايلين تكاد تفقد أنفاســـها انبهارا ، أخرجت كل ما فى حافظتها من نقود وأودعتها يد الرجل وهى تتوسل الى ٠

– أرجوك ٠٠ قل له ٠٠ أريد كل ما يمكننى آخـــذه بهذه النقود ٠٠

أعاد الرجل النقود دون أن يعنى بالنظر اليها ، لكننى اشتريت ما يمكن شراؤه بما فى يدى من نقود ايلين ، أبذل جهدى فى المساومة من أجلها وهى لا تحول عينيها عن النحاس لا تريد حتى أن يلمسه أحد ٠

وكان ثمة رجل آخر ، عيونه علينا ، كنت أظنه شريك صاحب النحاس وأتوجه اليه بالحديث أحيانا لكنه أوضح لى :

– على فكرة ده مش محلى ٠٠ أنا دكانى هنا جنبـــك ٠٠ اتفضلوا شرفونا

قلت لالزبث وأيلين

ـ هذا الرجل يدعونا لنرى دكانه ٠

نحن مبتهجون وعلى استعداد لتقبل آية فكرة ، تحمست ايلين وأبتسمت الزبث موافقة والرجل سبقنا ، ومن زقاق نظيف صعدنا درجتين الى الدكان ٠

قصر صغير خرافى ، عابق بالبخور ، خابى الضوء ، ثريات مدلاة من الزجاج والنحاس ومن أشكال لم تخطر على قلب انسان ، حول الحيطان تدور عقود الارابيسك تخفى الخوابى والمقاصير ٠ الرفوف والخانات والعلاقات تحمل سائر القفاطين ، والعباءات ، والعقل والأوشحة والشـــيلان والطنافس من الحرير والشـــاهى والصوف ، الأرض تنتثر عليها حشايا من جلد وثير ، نوافذ زجاجية نضضت وراءها الحلى من الذهب والفضة والجواهر ، صناديق وأطباق من الصدف ، الدكان رائع يفتن ايلين تدور كالنحلة الزبث تتأمل مذهولة ، والرجل يتأملنا ويبتسم وهو واثق من تأثير دكانه علينا ، يصفق حتى يأتيه ولد صغير ٠

ـ هات شاى

همست لا لزبث

ـ الرجل طلب شايا

وهمست لى

ـ لا باس ٠٠ احب شايكم

اما أنا فلم اكن ادرى ماذا افعل ، جلست فى ركن على حشية من الجلد أتأمل اكداس التحف والمصنوعات الدقيقة ٠

مشكاة مدلاة من السقف معلقة بثلاثة سلاسل من النحاس بللور أخضر منقوش يدأب لا يكل يترقرق الضوء من خلاله وتترقرق النقوش ، آية قرآن « انا فتحنا لك فتحا مبينا » لكن الكلام ليس كلاما ، انه همس اجراس ، تتسرب خيوطها الخضراء الى الجدران تملأ النفس حنينا وتشوقا وشجنا ·· كم ضجرت من عرى حياتى وبساطتها المبتذلة ، ذلك المصباح المشنوق فى سقف غرفتى الأبيض ، المصباح المدلى من سلك كهربائى مرقط بنقط سوداء من وقوع الذباب كل ما ألمسه من شىء انما صنع على عجل ولهوجه وألقى دونما اهتمام ، واحد من آلف شىء ضربت على ذات الغرار ، ســــوقية تحاصرنى وتبحلق فى بلا جلال ، ·· لو كنت أتناول شرابى من هذه القارورة ، أو أغمس ريشتى فى هذه المحبرة ·

اتخذت الزبث لنفسها حشية قربى ، ملأت عينى من وجهها . خضرة عينيها داكنة فى ضـــــوء الدكان ، شفتاها تحضنان مبسم سيجارتها ثم تخلصان منه فى كسل ، جررت مائدة صغيرة بيننا ، احضر الولد الشاى ، صينية نحاسية ، أكواب صغيرة من الزجاج المصرى الأخضر نحيلةالخصور مذهبة الحواف، ذات مقابض،مددت لها يدى بالكوب ، فى قلبى الحنان كل الحنان ، ·· فان الأشياء طول الوقت كانت بالغة السوء ، الحجرات على السطوح الأكل فى المطاعم الحقيرة ··

– شقتك يا الزبث ·· هل هى جميلة

– انها صغيرة ··

– ·····

– ألا تعطى ايلين شايا

قمت بالشاى لايلين ، تتفرج على طاقم رائع من الجعارين .

وقفت ارقبها ، الرجل يجيد الفرنسية تماما ، تناولت أنا خاتما عليه جعران أخضر صغير ، سألت الرجل :

ـ بكام ده يا أستاذ

ودون أن يلتفت ناحيتى

ـ خمسة وعشرين قرش

عدت بالخاتم الى الزبت

أخذت يدها فى يدى ، ألبستها الخاتم

ـ لقد أشتريت لك هذا

استعرضت الخاتم فى يدها ، عيونها تبرق بحنان

ـ مرسى ·· اشكرك ·· أنه جميل ·· كنت دائما اريد شيئا كهذا ·

صوتها رقيق ناعم مخملى ، فيه لون غريب من الدفء ، ترفع الى وجهها ، تقرب الكوب الأخضر الصغير الى فمها بين أصابعها الناصعة وفيها خاتمى ·

ـ شايكم رائع ·· جميل دائما ·

أتأمل وجهها ، ذلك الزغب الدقيق ، الشفتين المبلولتين بالشاى ·· تتشاغل بالتدخين ··

أحضر صبى نحاس أيلين فى ثلاث لفائف ، اصبح الحمل كبيرا ، النحاس والكاميرات وحقائب اليد قلت لايلين ··

ـ لن أصحبك مرة أخرى ··

ابتسمنا للرجل مودعين وخرجنا الى الشارع باحمالنا ·

لا نفكر فى شىء ، بقايا السرور فى أرواحنا ·· ربما ·· نوغل فى الحوارى ، تخبو الحركة على جانبى سكتنا رويدا رويدا ، وتبدأ الجدران الرمادية الساكنة تفرض وجودها مهيبا قديما متكبرا
الزبث تقترب منى مبتسمة ·

ـ أين نحن ؟

ـ نحن فى مصر ·· يا الزبث ··

ـ لا أدرى متى تمزح

ـ لا أمزح ·· هذه مصر ·· وهذا بيت القاضى

ـ ما هذا القاضى ؟

قلت بالفرنسية

ـ انه بيت القاضى

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا أدرى ماذا أقول ·· شخصية كبيرة ·· مقدسة

ـ افهم ·· قل

ـ الا تعرفين شيئا عن تاريخ مصر ·· ؟

ـ لا ··

ـ اذن ·· فقط تخيلى ·· الألاف الشاحبين الحافين العراة مكدسين هنا فى هذا الميدان أمام هذا البيت يهتفون نريد محمد على

ـ كانت ثورة ·· ؟

ـ كان حلما

ـ لم يصلوا لشىء ·· ؟

ـ حصلوا على شىء غير حقيقى ··

ـ ما هذا ·· ؟

ـ محمد على نفسه ··

ـ أوه ·· اننى لا أفهم

ولا أنا ، ممتلىء حقدا وضراوة ، لكننى لا أدرى ، أحس اننى أستلب ولم أدرك بعد قوانين اللعبة ·

ـ اننى اكتب القصص

ـ ماذا ··

ـ أعنى ·· نحن الذين أتينا من القرى ·· نسكن الغرف الحقيرة ·· ونكتب القصص ·

ـ أتسكن فى غرفة

ـ نعم · وأنه لطيب أننى أكتب ··

فأمثالى حينما لا يكتبون لا يجدون ·· ما يفعلونه بحزنهم ، يبكون فى الليل ، أو يسرقون أو يدورون على المقاهى يبيعون اليانصيب ··

ـ أين نحن ؟

ـ لا ادرى ·· الاتعرفين أنت ··

ـ أنت تمزح طبعا ·· كيف نعود اذن ·

لقيت رجلا ·

ـ منين على سيدنا الحسين

ـ زى ما أنت كده على طول

الحوارى تتلوى وتستقيم ، تقودنا الى مسجد الحسين ، على الرصيف يقعد العجائز والعميان يبيعون كتب السير والأوراد ودلائل الخيرات ، والبخر والمسابح ·

كنت أحضر كل عام مع أبى ودراويشه ، الغرفة الكبيرة القديمة الموقد والقهوة ، الخبز والملح والقراقيش

ـ الزبث ·· هذا قبر حفيد النبى محمد

ـ أحقا

ـ أتعرفين ·· أننى احب القديسين ·· هل تحبينهم

ـ انهم يبهروننى هذه الأساطير عنهم ·· تملأنى دهشــة

ـ لكن قديسونا يملؤوننى حزنا ·

رثاث ، يمشــون خطوات وئيدة ، يخبطون الأرض بالعصى الغلاظ ، فلاحون ، يقفون على رؤوس الترع ، يبسطون أكفا ناحلة يمنعون الندوة عن الغيطان الخضراء ، لا يركبون عربات تجرها الخيول الفارهة ويطيرون بها على السحب مثل آلهة اليونان ·· لا انهم فقط فلاحون مهلهلوا الثياب ··

ـ الزبث

ـ أوه ·· ان كل الأشياء غريبة

لو أضمك الى ·· أملك أعماقك

ـ انظرى

هل يمكن أن تفهمى

ـ لابد أن نعود فورا الى الفندق ·· غذاؤنا محجوز لنا

أشرت لتاكسى ، ركبتا ، ابتسمت لى من خلف زجاج النافذة، سارت بها العربة ، تركانى فى وحشة ، نظرت فى ساعتى ، الواحدة والنصف سألقاهم فى الثالثة ، يالها من ساعة ونصف ، تتحدر بى الشوارع ، دخلت مطعما ، الأكل مقزز ، أكاد أتقيأ ، الناس من كل شكل يأكلون بدأب كالزنابير الحمراء ، انهيت طعامى وقمت ، قلت مواسيا نفسى سأغسل وجهى وأعود لهما ·

- ٤ -

أشرت لتاكسى وطلبت منه أن يذهب الى ميدان التحرير ، رسا بنا أمام جامع عمر مكرم ، أنحنيت أستطلع الأجرة فى العداد ، ما معى من النقود بالكاد يكفى ٠

مشينا فى الشارع ساكتين ، أين أذهب بهما ، لا أدرى ، لم أجرب ، قبلا أن أذهب الى مكان ما ، أدور فى حر الشوارع كدابة الساقية العمياء ، آلا يمكن أن توجد أمكنة رائعة خارج اطار حياتى، وأماكن رائعة مليئة بالاثارة والجمال ٠٠ قالت أيلين ٠

- أليس لديكم حديقة كبيرة ٠

فعلا سأذهب بهما الى القناطر ، وفى الاتوبيس النهرى ٠٠

هتفت فرحا ٠٠

- نعم ٠٠ نعم

أنا لم آر حدائق القناطر أبدا ، لكن عشرات الناس يذهبون ويقولون كم هى رائعة ، الفكرة تثيرنى فأتحـــرك بخفة رغم ثقل الشمس فوق رأسى ، قلت لهما ٠

- لنبحث عن مكان الأتوبيس النهرى

ـ الا تعرفه ·

ـ رأيته مرارا ·· ولكننى نسيت

ثم تغلبت على تردد ثقيل وقلت لهما وأنا دائب خجلا ·

ـ ·· سأقول لكما شيئا ·· الآن ·· ليس معى ولا مليم

لم تهتما بالأمر ·· قالت أيلين

ـ ولا أنا

وقالت الزبث هادئة

ـ معى مايكفى ·· هل تتوقع نفقات كبيرة ·· ؟

ـ لا أعتقد

ـ حســـــنا

اندفعت سائرا ، ·· وهما تمشيان معا ، تتهامسان بالفرنسية وتنظران لى ، هل تتحدثان عنى ، غرقت فى الارتباك ، سألت رجلا عن الاتوبيس النهرى نظر الى ، سمينا عيناه عائتمان فى العرق ، ثم مشى دون أن يبدو عليه أنه سمع كلامى ·

مررنا بذلك المكان حيث مشينا معا أنا والزبث فى تلك الليلة الغريبة ، نظرت الى الزبث ، بادلتنى نظرة عاتبة ، نكست بصرى ، لكنها أبتسمت ودودة متسامحة ·

هبطنا الى مرساة الأتوبيس النهرى ، المربع الخشبى العائم يستسلم فى بلاده للهيب الشمس ، مشينا الى ظل الكشك ، حرانتين ملوحتين ساكنتين تتهامسان ، صمت الساعة الخامسة ملىء بالقلق والتوجس وتوقع المساء ، وجه الرجل فى شباك الكشك أسمر سمين

تتحرك عيناه حركة حربائية لتأكيد ركود ملامحه ، أريد لو أتكلم طول الوقت ، الصمت يصيبنى بنوع من الخوف ، ‥ ، لكنهما هربتا الى المربع الصغير من الظل تتهامسان ، أدرت وجهى فتحت عينى على البريق الخاطف لصفحة النيل ، تركتهما تعشيان بالضوء ، ماجت ألوان خضراء وحمراء فى رأسى حتى تصدعت ، الأتوبيس هناك يمخر الماء كدودة ‥

ـ هو ده

ـ أيوه

ـ بيقوم على طول

ـ أيوه

أطل من شباك كشكه الصغير وقال للفتاتين بأنجليزية ركيكة

ـ نعم ‥ نعم ‥

امتلأ وجهه بالحياة وأبتسمت عيونه ، ثم فجأة تخاذل وعاد يجلس خائبا ٠

الأتوبيس يهدر راسيا ، الماء يصفق خشب المرساة فى شقاوة ، سأتقدم اليها حالا أسندها وهى تركب، أضم يدى على كفها الصغير، تصور ‥ ، لا ركاب سوانا وطاقم الأتوبيس ٠

السائق لا يرى أمامه بوضوح ، فالماء ينبعث من تحت أنف العربة ثم ينهمر على الزجاج لكن السائق ليس عصبيا ، يطلق السارينة ويدفع العربة الى مزيد من السرعة ٠

أحب أن أتأمل السائقين ، وكيف يسيطرون على الآلة بأصابع رقيقة ، وينظرون الى الأمام فى تأمل ساج ، الأيدى والأرجل تنتقل فى تناغم مدرك ، انه يمسك الآلة من عرق رقبتها ، يلجمها ويكبت

هياجها ، أو يطلق الطاقة فى جســـدها هادرة ، وكأنما لها روح تخضع فى أنوثة ليده القوية تتحسسها فى دربة وفرح ٠

الاتوبيس يهتز بحركة الماء والموتور أهتزازا غريبا ، الرشاش ثائر حول العربة المنطلقة يترقب فرجة ليندفع داخلا ، أحس أننى غائر بين ضفتين من الماء تحدقان بى من صفى النوافذ على الجانبين، أود لو أقوم أجرى ـ فى الطـــرقة بين المقاعد ، لكن هؤلاء الناس يحوطوننا بسياج من العيون ، الزبث تلبد فى جنبى ساكنة ، الدم هائج تحت بشرة وجهى ٠٠ أين أيلين ٠٠ فى المقاعد الخلفية ٠٠ الكلام يتفجر فى صدرى ٠٠

ـ الزبث

ـ ٠٠٠٠

ـ أرينى حقيبة يدك

ناولتها مستسلمة ، أحب النظر فى حقائب يد البنات ، أغرقت فى الضحك ٠

ـ لماذا تضحك ٠٠ ؟

مرة وجدت فى حقيبة فتاة قشر فول سودانى ٠

ـ ماذا لو أضحك ؟

لبدت فى جنبى ، ساكنة تنظر الى ، ألقصة على جبينها جافة كعشبة حزينة ، ذهبية فى شمس الأصيل ، فمها ، لو قبلتها لأحرقت الشفتين الرقيقتين المرتعشتين فى عذوبة نادرة ، بشرتها جافة ملوحة، تلمح القشور الدقيقة مخلفة وراءها البشرة عارية حمراء ٠

الزبث ، صفاء عينيك يلعب بمخى ، تفجرين الغضب والضحك والحزن ، أقدم لك نفسي ، أنني أعبدك ولا عمل لى ٠٠

وأنا أحب أن أتكلم ، وأحب الفتيات ، يمكننى أن أحكى لهن الحكايا طول عمرى ، لا شىء أعمله ســـوى أن أعبد وجه أنثى ، ويالها من مهنة ، وأن أجول فى الشوارع حتى يبلى حذائى ، وأن أتكلم عن الأشياء المجيدة ، ترينها متوهجة فى كلماتى ·

سوط الماء أصاب وجهى وبلل ثوب الزبث ، أجفلنا متراجعين فى المقعد ، ثم قمنا نفر الى الخلف ، نضحك ، نتأمل المقاعد حيث كنا نجلس وقد أغرقها الماء ·

ـ الزبث

متى أضمها ·· ؟ صغيرة رقيقة تلتصق بى كالثوب الغالى ·

ـ نعم ··

ـ هل تغمسين يدك فى النيل ؟

تطيع وتأتى الى كاليمامة الأليفة ، جلســـنا على عتبة باب العربة ، نميل معا لنغـــرف بأيدينا من النيل ، تتفادى محـــاولتى لاحتضانها ، ضحكت وضحكت أنا مغيظا ·

ـ قل لى

ـ عن ماذا ·· ؟

ـ أتعرف ·· انك غريب حقا ··

ـ اننى أدفع بنفسى تحت أنف محدثى ·· يرانى مكبرا ·· يرى غرابتى ·

ـ لا أفهم ··

ـ ولا أنا

·· هاهى تسعى الى أن تتحسسنى، الأنثى، تنظر الى لا تتهيب،

هانا ·· ثلاثون عاما ·· فى كم كلمة تقال الأشياء كلها ·· ثلاثون عاما ·· لكننى لازلت هنا ·· فرح ·· فلازلت أسير ·

ـ لست أدرى تماما ·· لكنك تضحك كثيرا ·· تقول كلاما كثيرا ·· أحس بالدوار ··

ـ لا تصابى بالدوار ·· اسمعينى جيدا ·· ذلك يلذ لى ·· قفى ··

وقفنا معا ، قامتنا أعلى من قامة الباب ، خرج رأسانا وكتافا من فتحة السقف ، ملت لأقبلها تحاشتنى ، غضبت قليلا ، تكلمت لادارى غضبى ·

ـ النيل هنا أوسع ما يمكن ·· بعد ذلك يتفرع الى فرعين ·

كمية هائلة من الماء ، ونحن فى مركبنا الصغير نزحف على وجه النيل ، عدنا الى جلستنا على عتبة الباب وأنا شارد أفكر ··

ـ أنت حزين

ـ ·· تذكرت شيئا ·· انا اقيم فى غرفة على السطوح ··

ـ همه

ـ جاءنى مرة صديق ·· فرشنا بطانية على الأرض ·· أستلقينا صامتين نتأمل النجوم ·· حزانى ·· صديقى هذا قبطى ·

لا تدرك ما أقول تماما ، لكنها تحس رغبتى فى الافضاء فتنصت لى ، ثم تهمس ··

ـ الانسان ليس سعيدا ·· عادة ··

ـ انسان هذه السنين ·· ؟ عليه أن يقف فى آخر الصف ··

ـ ماذا ·· ؟

ـ على اننى اكون سعيدا حينما أكتب ·· رقيقا حالما ·· وديعا ··

ـ هل أنت متدين ·· ؟

ـ كنا سعداء يوم بنينا مسجد قريتنا ·

ـ هل تراه حينما تذهب للقرية ·· ؟

ـ نعم · ·أنه شيء واحد ·· نظيف جميل ·· تنظفه بأطراف ثيابنا ·· بدلا من الأكواخ القذرة ··

ـ لكنك لست متدينا

ـ أعرف الأديان وأحبها

ـ أنها ليست شيئا واحدا

ـ كاختلاف أنماط العمارة ·· فى اطار الفن

غام وجهها قلقا ··

ـ الى ما تتشوقين يا الزبث ·· ؟

ـ النظافة ·· الشرف ·· العدالة ··

ـ ذلك شيء انسان ·· فى داخلنا كلنا ·· هنا ··

ـ حينما كنت صغيرة ·· أوه لا ·· أن ذلك ضرورى ·

ـ حينما كنت صغيرا ·· كان لى أب أسمر سمين ·· يجلس على اريكة فى الشرفة والناس حوله ، ومعهم كتاب اوراقه صفراء يقرأون حكايات مؤثرة ، ثم يذهبون الى المسجد ، يغسلون وجوههم ويسكنون فى خشوع ، ثم يخرجون نظيفون هادئون ·· كم أحببتهم · لكن عقلى راح يسأل ، اشتريت لنفسى كتبا بيضاء ، كتبها رجال

هذا العصر ، وبدأت أسال أبى أسئلة صعبة ·· نظر الى بحزن « يابنى ·· هذه أشـــياء لا تهمنا ·· نحن هكذا ·· لا زيادة » هل تفهمين شيئا يا الزبث

ـ ليس تماما ·· لكننى بدرجة معقولة ·· أدرك ··

لكنها لن تدرك مدى الألم ، لا مكان لأريح ظهرى ، وســـط الحطام ، وحيد لدرجة البكاء ، خائف لدرجة الرعب ، الجدران ســـمراء مدهوكة بالطين تملأ خيالى بالحداد ، انتهت الى الأبد أشيائى الحميمة ، الأحلام والرؤى المذهبة ، أصـــبح عالمى صلبا جافاقبيحا ·· لكن لا حيلة لى ·

ـ كانت صدفة القوقع شيئا سحريا ·· أضعها على أذنى · أسمع وشيشها ·· يقولون « البحر فى داخلها » ·· ثم وجدت قوقعا حيا ·· وضعته فى كوبة ماء لا شىء ·· أنها فقط صدفة الحيوان ·

ـ أوه ·· لا يمكننى أن أتصور ··

ـ ·· الفن ·· ؟

ـ لا يكفى ··

ـ أن نجد الجمال فى الحقائق البسيطة المليئة بالانفعال ··

ـ لا أفهمك

نظرت فى عينيها ، وجهانا متقـــابلان ، التفتنا معا فجاة الى ايلين ، الكاميرا فى يدها ، نضحك التقطت صورة لوجهينا المتقابلين ·· ضحكنا لها

ـ الزبث ·· لنقف لنرى العالم ··

الفضاء عميق حولنا من كل الجهات ، ندى بالشمس الحمراء

غيطان الذرة عميقة الخضرة ثرية ثراء مذهلا ، ملت على الزبث لأقبلها ، تفادتنى

ـ لكن ·· لماذا ·· ؟

ـ أنا لا أريد

وخزنى رفضها بشدة ، أريد أن أقبلها ، أن يمشى ريقها فى عروقى لتنبض بعنف فى وجه الكآبة الزاحفة ، خيالات الرؤى الفاترة، الخوف والفراغ كالعدم ، الفرقة من كل الأشياء الحبيبة ·· أريد أن أقبلها ·

ـ لنجلس ··

جلست ساهمة ·· تفكر ·· يداها فى حجرها كالمتبتلة ، خضرة عيونها أعمق ماتكون ، ضحكت ··

ـ لماذا تضحك ·· ؟

ـ تذكرت مرة أخرى صديقى القبطى الذى زارنى مرة ·· انظرى هذا رجل يسقى بالشادوف ··

ـ نعم ·· أراه

ـ فى بلدنا ·· أحيانا ·· تعيش الأسرة على بضعة أمتار من الأرض ·· تسقيها بالشادوف على ضفة القناة ·· يزرعونها خضرا ·· يبيعون الخضار بأرغفة ·· يعيشون على هذه الأرغفة خبزا فقط طول اليوم ·· لكنهم الآن يعيشون العصر ·· يحسون به ·· يملكون طاقة رهيبة يريدون التغيير ··

شاردة تفكر ، لا تنصت لى ، لكن هل كنت أعنيها بكلامى حقا ، المسألة اننى أصبحت فى الثلاثين وأعرف بعض الأشياء الصغيرة · أكره الحياة ولا أتخلى عنها ، والأفكار تتسرب الى روحى كالأعشاب

الطفيلية حتى تخنقها فما تعود قادرة على الخصب ، ولا يمكن أن يعيش الانسان على الخبز فقط ، لكنه اذ يحس أن الآفاق مخوفه يدرو حول نفسه فى المسارب ٠٠ عندئذ ٠٠ حينما زارنى صديقى استلقينا حزانى نتأمل النجوم ، لا نتكلم لكننا متواصـــلان بالحزن كالأوانى المستطرقة ، عميق هذا الألم حتى النخاع ٠

ـ اننى مملوءة اقتناعا ٠

ـ اننى ممتلىء فراغا

ـ ماذا ٠٠ ماذا تعنى ٠٠ ؟

ـ هناك ألم فى ظهرى ٠٠ مع أنى لم أمسك الشادوف بيدى أبدا ٠٠

ـ كيف تعيش هكذا ٠٠ ؟

ـ طول الوقت أحلم ٠٠ بعربة ٠٠ بحبيبه ٠٠ وعالم ليس فيه خوف ٠٠

ـ لا أفهمك

ـ اننى مجهد للغاية ٠٠ أين أيلين ٠٠ ؟

أخفت نفســـها مطلة على النهر الهادر جنب نهاية العربة خصلات شعرها طائرة فى الهواء ٠

ـ ماذا تفعلين هنا فى الشمس

ـ أوه ٠٠ لقد أصبحت طيبة

ـ أتعرفين ٠٠ سنصل حالا

ـ أحقا ٠٠

نطقتها بطريقة غريبة ، كهرة مشتاقة للتربيت ، هرة صغيرة طيبة ، لبدت هاهنا لتترك لى الفرصة مع الزبث ، الأناث جميلات وحنونات ومرهفات الحس ، تحبنا ، تحب ذلك الشيء الصغير غير المرئى الذى ينمو بيننا ، ربما ، وبكل اشتياقها لحبيب ··

ـ حقا يا ايلين ·· لقد وصلنا ·· لماذا تخفين نفسك هنا ·· قومى ··

مددت لها يدى ، تجنبتها ، ارتجف شيء فى داخلى دهشة ، وارتجف جفنها ، لكنها كانت تمنحنى بعيونها الواسعة النبيه أمومة رائعة كالمنبع ·

فان شيئا ماقد حدث ، متى ·· ؟ لا أدرى ، أرواحنا نحن الثلاثة أصبحت تتآلف كحمامات صديقة ، حتى أصواتنا أصبحت أكثر خفوتا ، وخطوط حركتنا ناعمة متناغمة ، ·· ربما هى الشمس الغاربة ، أو الهواء المبلول الذيول المسحوب على صفحة النيل ·

روحى التقطت التغيير وانطلقت كفتاة صغيرة تواقة للتقبيل ·، نمشى ، نحمل حاجياتنا لا نتوقع شيئا ولا نحلم بشيء ، غارقين فى رضاء سلبى ناعم ·

عينا الزبث مفعمتان بالأمان ، شفتاها تتحركان بحرية ، أعصابى المعلقة بتوترات وجهها تهدأ الآن وتستريح ·

ـ أتدرى ·· الفتيات الآخريات ·· تتساءلن ·· وتتهامس ·· نحن لا نرتبط بالباقيات ·· لا نسير حسب البرنامج ·· نغيب ساعات طويلة ونعود ··

تحل العقد عن الأسرار الصغيرة ، تلك التى تتوارى أحيانا وتجعلك تحترق لتعرف ، الانسان بأسراره كمية مخيفة ، ·· ومن

غيرها ·· أيكون غفـــلا عاديا مبتذلا ·· ، أم يكون حبيبا رائعا بالبساطة ·

ـ أوه ·· حتى السويسريين ·· لكن لماذا ·· هل أنتم جميعا أصدقاء ·· أعنى من نفس المكان ··

أنا فرح يزغرد الضحك فى قلبى · ·

ـ لا ·· لقد جمعنا اعلان فى جورنال ··

ـ ····

ـ فقط أنا وأختى روزمارى وأيلين وأيلين هده

ـ هل توجد اثنان ايلين ·· ؟

ـ نعم ·· توجد أيلين أخرى ·

ـ لكن أيلين هذه ·· رائعة ··

وشهقت أيلين ·

ـ أوه ·· أشكرك حقا

ووصلت الزبث

ـ أتعرف ·· كان انطباعى عنك سيئا

ـ والآن ·· ؟

ضحكت من قلبها

ـ المشكلة معك ·· الانسان لا يعرف ·· متى تضحك ·· متى تكون جادا ··

ـ وهل هناك فرق واضح

ـ طبعا

ـ طبعا ماذا ٠٠ ؟

ـ أوه ٠٠ انك لمتعب

لو يمضـــى الحديث هكذا ٠٠ رقيقـا وبلا كلفة مع فتاتين جميلتين ٠

تجمع حولنا عدد من المراكبية ، كلام كثير ملىء بالتفاصـــيل والأسعار والمقارنات والمفهومية والجدعنة ، وأنا لا أستطيع أن أكون جدعا لسبب بسيط هو أننى لا أملك مليما واحدا فى جيبى ٠

مشينا لكن ولدا صغيرا فى غاية اللطافة ظل وراءنا يلح فى اغوائنا ، سرت منه ايلين وتأخرت به عنا ، ربما لاحساسها انها زائدة ، تلفتنا وراءنا تكلم الولد كيف يعد بالفرنسية وهو يحاورها ويعلمها كيف تعد بالعربية ٠٠

ـ ايلين ٠٠ الا تنسين أنك مدرسة

ضحكت الزبث وهتفت ايلين

ـ أوه ٠٠ أنه ولد متعب حقا

نمشى فى شارع مرصوف على النيل ، لا أدرى الى أين ينتهى، لكنه على أى حال شارع جميل بين صـــفين كثيفين من أشـــجار الكافور ، الآن أيلين بعيدة تسرح بالولد المتعب الصغير ، أنا والزبث أمسكت يدها ٠

ـ الزبث ٠٠ تعال نذهب بعيدا

ـ ٠٠ اننا نبتعد كثيرا عن ايلين ٠٠

ـ أتعرفين ٠٠

ـ ههه

ـ عقلى ملىء ، بصور كتاب المطالعة الصغير

ـ ذلك مضحك

ـ بعضها كان بهيجا

ـ لازلت تذكر ٠٠ ؟

ـ وبعضها كان غير واضح ٠٠ يثير غيظى ٠٠

ـ ٠٠

ـ منها صورة لهذه القناطر

أشرت لها على القناطر ، لوحنا لأيلين وسرنا

ـ لقد أستلزم الأمر عشرين عاما

ـ ماذا ٠٠ ؟

ـ لو لم تأت الى ٠٠ ربما كانت القناطر للآن صـــورة غير واضحة فى ذهنى ٠٠

باب شاهق يملأ القلب بالرهبة ، عبرنا داخلين ، التفت ورائى فجأة ، كأنما أسمع صرير مصراعين عملاقين ينضــمان مغلقين ورائى ، ومن ثمة أغرق فى وحشة قاتلة ، ويمشى الرعب فى كيانى ، تحلل بطىء ينتقل من خلية الى خلية ٠٠

فلاحات آيبات على رؤوسهن المكاتل ، قبقاب الزبث يضـــرب بلاطات الجسر ، نكر راجعين ، تلكأت قليلا عند الباب ، تحسست صخوره ، ناعمة وتحمل شيئا من دفء الظهيرة ٠

ايلين وحبيبها المشاغب ، الخبيث لا ينسى ، ينظر الى معاتبا ٠

ـ القارب مستنى •

امتلأت ضحكا ومضيت لا مباليا •

امسك بيد الزبث ، نتوغل فى امتداد شـــامخ ملىء بهضبات صغيرة مغطاة بالنجيل الأخضر وتنثر فيه الأشجار الضخام •

تمشى بجوارى صغيرة ملفوفة فى ذلك الرداء الحريرى ، نرقى هضبة صغيرة على قمتها شجرة شاذة النمو ، تتلوى فروعها شوهاء عليلة عجوزة ، وقفنا نتأمل الشجرة معا ، تملؤنى حزنا ضممت كتفيها النحيلتين الى ، أشرعت عينيها نحوى •

ـ أريد أن التصق بك

ـ أنك غريب

جذبتها وهبطنا نجرى ، النسائم طلقة تلمؤنى انفعالا ، قناة صغيرة على ضفتها أشجار كافور تدلى فروعها فى الماء ••

ـ انظرى •• الأشجار تغسل شعرها

ـ حقا ••

ـ أليست الأشجار كالبنات

تضحك بصفاء ، آخذها وأجرى ، الفضاء شاسع حولنا ابذل مجهودا ضخما يغطى دائرة من حولها وتنظر الى كعصفور صغير ، متى تستكين فى يدى ، متى أذيبها فى حضنى •

ـ أترى ايلين هناك ••

جالسة هى والصبى على ربوة بعيدة •

ـ آه •• مع الولد المشاغب

ابتسمت وهى تنظر تجاه ايلين ، عيناها ، وفمها ، وجهها . وجه صبى صغير حينما ترنو لشىء ما بحب ·

ـ تعالى نجلس هنا ··

جلست قبالتى على الحشيش ، تنظر الى عيناها واسعتان ، الذهب فيهما قاتم ، من احمرار المساء والخضار تشوية الظلال ، ادير وجهى بعيدا لاســتمرىء اليقين بأنى أراها وعيناى بعيدتان عنها ، هى فى داخلى اشعاعاتها تنفذ الى قلبى وتحكى له الحكايا ·

ـ الزبث

ـ نعم

أريد أن أصب روحى فيك ، روح طيبة مصنوعة من اشعاعات مساء رائق الاحمرار ، قد تجدين فيها اســتغاثة مؤذن والحطب مبلول على أسطح الدور ، قد تجدين فيها حدب فلاح عجوز على بقرته التعبى ، أو عديد ندابة ، أو كلمات متشققة لانسان تورقه التناقضات والعمى والصلابة الفولاذية فى أنوف الآلاف ··

أمسكت يدها بقوة

ـ الزبث

ـ ····

أريد أن تؤرقك حرقتى وتملأك بالدهشة حتى تسألى لماذا ، عندئذ أملأ تجويفك الصغير بالعذاب الحنون ، حتى تحيى الســير وحيدة وتمسحى بحدب على الأشياء الصغيرة وتنظرى بدهشة الى الألوان والكتل المتصــارعة وتتلهفى على الآفاق المخوفة بلا تردد وعيونك مليئة بالدموع ··

أنا قادر على حبك ، وذلك لازم لى لأحارب الوهم والتداعيات الخبيثة ، أريد أن أستلم روحك وأربطها بأحزانى وأسترقها لنفسى وأنام وهى فى حضنى ٠٠

تمددت الزبث على الحشيش ، وجهها نائم على ذراعها المثنية، تمددت بجوارها كأننا غائران فى الأرض معا ، عيونها تحدق فى ، ووجهها يملأ وعيي ويستقر الأمان فى أعماقي، ويشفى القلق والوحشة والأسى الذى تسحه الأيام بلا انقطاع ٠٠ يا حبيبتى ٠٠

أغمضت عينيها قليلا ثم انبجس الدم من أنفها أحمر قانيا ، قطرات عصبية متسرعة تسرب فى ثيابها وصدرها ٠

نهضت واقفا ، اخرج منديلى من جيب بنطلونى جاريا صوب الترعة ، عدت بالمنديل مبلولا ، يكاد ينشق صدرى من الجرى ، سقطت على ركبتى أمامها أناولها المنديل واهنة هادئة شفتاها منفرجتان فى ظل ابتسامة ٠٠

ـ ليس شيئا خطيرا

ـ الزبث

تمسح الدم بالمنديل المبلول

ـ ليس شيئا خطيرا ٠٠ الأولاد فى فصلى كثيرا ما يصاب الواحد منهم بذلك ٠٠ كنت أخاف ثم عرفت أنه ليس شيئا خطيرا ٠

اقبلت ايلين تجرى ، تكلمت مع الزبث بالفرنسية ، وضعت خارج الحوار ، وبقيت أنتظر قلقا والصبى على البعد يرقبنا ، فى عينيه تلوح السخرية من لهفتنا وقلقنا قال :

ـ القارب مستنى ، تعالوا بقى

قلت لالزبث وايلين

- علينا أن نمضى

مشينا ثلاثتنا ، السماء مظلمة بزرقة كابية مؤطرة الحواف ، باحمرار واهن ، الصبى تركنا ، مضى يائسا ، نسير فى اتجاه يتبعه الناس ، المساء يحل بسرعة ، كأنما تموت الأشياء ، تغطى بالعتمة نفسها وتقف منفردة متباعدة حزينة ٠

ناس كثيرون على محطة الاتوبيس ، أشجار ضخمة ، تتدلى من الفروع جذورا تبحث مرة أخرى عن الأرض ، القمم العالية غارقة فى الظلمة صامتة ، النهر يتسلل خلف ظهور الناس جنب الشجر ، تفضحه بقع من الضوء تبرق دهشة ، والماء يهمس للشاطىء حذرا ، الناس يتلفتون ، كثيرون هم لكنهم وحيدون مغلقون ، المساء رائق هامس ، لمعات المصابيح المتباعدة أو الجنادب المخبأة فى الليل ، ٠٠ قلت لهما مخافتا ٠

- الا نمشى قليلا

قالت ايلين

- أفضل أن أبقى هنا

وجدتنى والزبث سائرين ، صامتين تماما ، لا نسمع حتى وقع خطانا ، جسمها يرتاح الى جسمى بلا غربة ، نتلاصق فى وئام كوسادتين لينتين ، لففت يدى حول خصرها ، هشة رقيقة مطاوعة ملت بها الى ظلمة مقصورة تحت شجرة ضخمة ، ضممتها الى صدرى ، كفى يمشى على ظهرها ضلوعها تحت ثوبها الحريرى ، خدها الدافىء مرتكن على رقبتى ، شعرها يوشوش فى أذنى ثدياها طريان مرتكزتان على صدرى ٠٠

سرنا مرة أخرى ، نروح ونجىء صامتين ، لا قلق ٠٠ لا مخاوف ٠٠ لا رغائب ، فقط الزبث والمساء الرقيق الملىء بالسكون ،

والمصابيح المتباعدة والناس المجهدون بعد يوم فى حديقة كبيرة ، يريدون أن يؤوبوا ، وأنا ٠٠ لما أرجـــع ٠٠ ؟ الزبث هى دارى ، ضغطت يدها ٠

ـ ألا تحسين بالغربة ٠٠ هنا ٠٠ بعيدا عن بيتك ٠٠

ـ لا

سحبتها مرة أخرى الى ظل الشجرة ، ضممتها ، نحيلة مليئة بالسلام ، تهمس فى أذنى ٠

ـ ايلين ٠٠ تركناها وحيدة ٠٠ ذلك يجعلها تخاف ٠٠ حينما تكون بين ناس لا تعرفهم ٠٠

سرنا نحو ايلين ، تقف مستندة الى جذع شجرة ، تكلمتا بفرنسية هامسة ، أرقبهما ساكنا ٠٠

جاءت العربة وأندفع الناس متزاحمين ، وبجهد وجدنا لأنفسنا مكانا ، وأنطلقت العربة حاملة هذه الكتلة الصـــاخبة من الناس والقفف ، المكدسة فى فراغ مشحون بضوء أصفر مترب ٠

الزبث ملتصقة بى ، جســـدها يسعى نحوى ، أحس دبيبه المتشوق ، والزحام يضغطنا لبعضنا من كل جانب ، عيونها على تتفرسنى بلهفة ، همست فى أذنها ٠

ـ الزبث ٠ العاشرة تماما ٠٠ سأنتظرك فى صالون الفندق ٠

ـ نعم

٠٠ وجه طفلة ملائكية

والعربة منطلقة وســـط الظـلام مربعات الضوء تجرى الى جوارنا ، تمس وجه الترعة وتنكسر على أعواد الحلفاء ومن وراء ذلك حائط الظلام ، لكننى لا أحس بالحصار أعود الى الزبث ، وقلبى يستريح على لهفة عيونها ٠٠ يا للحبور الرائق القرير الذى تمنحه لى ٠ الزبث هى خلاصى ٠

- ٥ -

آجرى فى العتمة صوب صف الغرف الممتد بعرض السطح ، الأضواء الباهرة فى مربعات الأبواب ، ومازال طعم عناق الزبث فى صدرى ، نعومة خدها على رقبتى ، قلبى يخفق وهواء الليلة الصيفية البارد يلسع أذنى ٠

أشباح رفاق السطوح ، الضحكات البائسة ، التنادى والصيحات التى تشبه العويل ، جرجرة الأقدام على بلاط السطح فى أخفاف رثة ، حفلة المساء القصيرة تشكل خلفية كئيبة بعيدة لفرحتى تناديني نداءا آسرا نداء الساقية المهجورة ، لكننى أندفع نحو غرفتى ٠

ابتسم لى أخى من مرقده على السرير

- يا عم على مهلك

- مشوار القناطر كان هايل

لازلت ألهث وأبتسامة أخى تتسلل الى فرحى

- وبعدين

أتحرك فى مكانى بعنف مقاوما ٠

ـ البس بسرعة ·· أنا عزمت صاحبتها عشانك ·· هتكون قعدة جميلة

اعتدل جالسا على السرير

ـ هتعمل أيه

كأنما توضع الأحجار الثقال فى مجرى فرحى المتدفق ، لكننى قفزت ، خلعت ثيابى التقطت غيارا داخليا ومنشفة وخرجت أجرى تاركا صرخة متوسلة ·

ـ حتبقى قعدة جميلة

ماء الدش ينهمر على جسدى العارى ، وفى داخلى يتكون موال متوجع ملىء بالحنين يعلو به صوت المغنى الى أعلى طبقاته تواقا للوصال ، وجه أخى يطل على يسألنى « هتعمل ايه ·· ؟ » وجه غائم بالصمت والقنوط ، ثم يحل محله وجه صديقى الأسمر ، عيناه تبرقان بجنون متعال ، يشير الى سرادق العنكبوت المنصوب فى الركن هاتفا « ·· لا » حينما ذهبت أشاركه السكن فى غرفته يسلط على اتهاما صارما أبويا ، يضبطنى بجريرتى والشوق يمزقنى « ·· لا » وأنا أريد أن أخرج ·· الزبئى ·· الزبئى ·

أحمل غيارى المتسخ فى يدى ، والماء يقطر من شعرى وعلى باب الحمام تنتظر دورها ، مومس منكوشة الشعر ، عيناها ممتلئتان كراهية ، جلبابها الخفيف الوحيد مشقوق على صدرها يبدى ثدييها المتهدلين ، وعلى باب غرفة يقف صاحبها فى ثيابه الداخلية يرقبها فى صمت متفكر ، ·· وعلى السرير داخل غرفتى لازال أخى يدخن سيجارته ·· تفكرت ، رفض يوما أمتحان اللياقة البدنية ، وبذلك فقد فرصته فى بعثة الى الخارج ·· لأن غياره الداخلى كان متسخا أما أنا فاننى أندفع نحو الزبئ حاملا فى جنبى كل أوضارى ·· يا أخى ·· يا حبيبى ·

ـ قوم ٠٠ ألبس

أشرق وجهه بابتسامة خافتة جميلة ، كل الفتيات يقلن أنه أكثر وسامة منى ، أحب هذا ٠

ـ البس بسرعة

وأغرقت نفسى بالكولونيا ، تأنقت كسفير ذاهب لمقابلة الملكة لكننى لا أملك سوى بضعة قروش التفت لأخى ٠

ـ لسه مالبستش

كان لايزال يعقد رباط رقبته ابتسم لأناقتى ٠

ـ روح أنت ٠٠ هستناكم قدام مطعم الدمياطى

ـ معك فلوس

ـ هستناكم قدام مطعم الدمياطى

هناك سوف أجده ، أنا آمن لهذا ، ايمان أمى بوصول النقود أول كل شهر ، ايمان لم يؤرقه خطأ واحد كل هذه السنين ، سوف أكون خزيانا قليلا وهو يدفع الحساب ، لكننى سوف أستمتع بالأمسية دون شك ، أحتضنته ، عريض ممتلىء الكتفين ، الانسان الوحيد الذى لا أخافه ، قبلته وطرت ٠٠ كالحمامة على شواش الزحام الى الفندق ٠٠

الردهة هادئة ، دائبة الحركة لكنها رصينة هامسة ، يالها من وجوه رائعة ، يتبادلون الابتسامات والهمسات ويتحركون فى رشاقة ٠ كم أنا زرى الهيئة ، عقرب الساعة المعلقة يتحرك كجبل ، وثمة رجل أصلع فى صندوق زجاجى ، يتأمل ويكتب ويرفع سماعة التليفون ، يحرك شفتيه بلا صوت ، ولا ينظر ناحيتى ، تقدمت اليه ٠

ـ أيوه يافندم ٠٠ آلوه مدموازيل الزبث زنج ٠٠ دى ٠٠ آه

ثم نظر الى

ـ نزلت

كدت أصعق ، لكنها كانت آتية ورائى تدوس برقة على السجادة الوثيرة ، حقيبتها الحمراء وردائها البنفسجى ، ابتسامتى تناضل بقاياى انفعالى العنيف ٠

ـ ألم تتأخرى قليلا

ـ أبدا ٠٠ هاك ساعتى

تلك الدقائق بين ساعات الناس ، ربما تكون فظيعة أحيانا ٠٠ لكنها أتت ، خفيفة كيمامة ٠٠

اى ثقل فى جسدى يجره الى الأرض ، أحتاج ألف سنة حب الزبث ، وأن آكل بطريقة خاصة ، شريحة من اللحم ونصف كوب ليمونادة ونصف كوب بيرة ٠٠ ، وكان هذا عشاؤها فى الحفلة ، أما أنا فقد حشوت جلدى بالطعام ٠٠ ، تلك الطيات من اللحم عند كرشى ، شفطته لأعلى ، ياربى ، ماذا تحب فى ٠٠ ؟ ترتدى ثوبا لطيفا وتأتى الى تضع يدها فى ذراعى ٠

ـ لكن ٠٠ أين ايلين ٠٠ ؟

ـ متعبة

رقيقة ٠٠ لم ترد أزعاجنا

فى كل ضجيج الشارع أميز خفقها الرقيق على الأسفلت ، هأنذا مع انثى جميلة أنيقة نسير ، لو كنت أهدأ قليلا لاستمتع

بالنزهة الصغيرة ، العيون تنظر الى ، لكننى أبحث عن وجهى بين عشرات الوجوه ، وجهى عندما أنزل وحيدا الى مســـاء المدينة المضاء ، أتأمل جزر السعادة الصغيرة المتباعدة السابحة فى الزحام ٠ أين وجهى ٠٠

ـ ماذا تحبين أن تأكلى ٠٠ ؟ هناك أكلة مصرية لذيذة ٠٠ فول مطبوخ بالزيت ٠٠ وهناك لحم ٠٠

ـ أفضل أن آكل لحما ٠٠

اختيار مكلف ، ولم تأت أيلين ، ماذا سيقول أخى ، استر يارب ، لكنه لم يتعكر ، أبتسم لنا من بعيد ، صافح الزبث ٠٠

ـ أخى ٠٠ مهندس

ـ انه يشبهك

ـ صحيح

قلت له أمامها

ـ تريد أن تأكل لحما

وقالت هى

ـ آسفة ٠٠ صديقتى مريضة ٠٠ لم تستطع الحضور

وقال لى

ـ نروح الشيمى ٠٠ كويس أوى

ضحكت ملوحا

ـ مافيش مانع ٠٠ مادمت عازمنا

وسارت الزبث بيننا ، بين الجرمين المندفعين على جانبيها ، خطواتها نغم رقيق آسر مفعم بالسرور ، مع انها لا تضحك ولا تشى خطواتها بأى نوع من الخفة ٠

مطعم الشيمى ، مددت يدى على آخرها عازما عليها لتدخل ، أبتسمت وخطت داخلة ، يا له من مكان فسيح مضاء عابق برائحة الشواء ، والناس عاكفون وجوههم تقطر نورا ، دوارنا وقد أزدحم بضوء الكلوب وبالطاعمين ، هنا لا جلبة ولا جلافة لكن السرور هو هو وبريق العيون ، السرور ينهمر على قلبى من منابع عمرى الأولى، اننى أتفجر بالمرح ٠

جلسا قبالتى ، أنا مسيطر على المكان كله ببصـــرى أحبس طاقتى لكنها تفلت منى ، أدق ٠٠ بقبضتى على الطاولة ، ثم أشرع فى الخطابة ، يتأملانى دهشين مبتسمين ٠

ـ الأشياء فذة ٠٠ مليئة بالتشويق ٠٠ حينما يتوقع الانسان طعاما فاخرا ٠

وتبادل الزبث أخى الابتسام

وعلى طاولة قريبة كان ثمة رجل فى حوالى الأربعين ـ ممتلىء أنيق لامع ، معه سيده لا تبدو زوجته ، بالغة الأناقة مطلية الوجه بأعتناء ، الرجل يدللها باهتمام ودرنة ، فاتنة لكن ثمة لمحات خاطفة من الضجف والخوف ٠٠ يا الهى ٠

انكفأت على طبقى أتأمل بياضه الناصع وأخبط بالملعقة على حافتة ، اننى أرقص رقصة زائفة ، أتلوى يائســـا كدودة ، رفعت عينى الى وجه الزبث ، شاحب شفيف ، عيناها خضروان ، وتلك القصة على جنبها ، أردد لنفسى بقوة « أنها جميلة ٠٠ انها حقيقة مغايرة ٠٠ » لكن صفاء نفسى تحاصره الغيوم ، فالرجل وصاحبته

كانا هناك دائما ، أسترق النظر اليهما وكثيرا ما أراهما يتبادلان الابتسام فى اكتئاب ..

رفعت الزبث كأسها ، شفتها غارقة فى النبيذ القانى

ـ نبيذكم جيد .. خير من نبيذنا ..

تأملت أسم النبيذ على الورقة الملصقة سارحا قليلا .

ـ كان عمر الخيام سكيرا عظيما

ترى هل يلمحان الغيوم التى تحاصـــر صفائى .. قال أخى بالانجليزية :

ـ لقد غاب الطعام كثيرا

ـ انهم يذبحون البقرة

قالت الزبث

ـ المشكلة مع أخيك أن الانسان لا يعرف متى يضحك ومتى يكون جادا .

تدخلت ضاحكا

ـ لا يكون ضحك .. ولا يكون جد .. الأشياء كلها عبيطة

تقابلت عيناى مع عينى المرأة الأنيقة

ـ الزبث .. أننى حزين ..

نظرت الى ، وجهها ممتلىء حنانا ، كم أريد أن أريح نفسى على شاطىء عيونها ..

التاكسى الفاره يستلبنا ، يلقى بنا الى حضن المقعد الوثير ، تحسست النقود التى وضعها أخى فى جيبى وهو يغلق باب العربة

بجانبى ، ثم غرقت فى ارتياح قرير ، ذراع الزبث تتسلل خلف ظهرى تريح رأسها على كتفى ، جسمها الدقيق يلبد فى جنبى مثل هرة صغيرة ، أحطت كتفها بساعدى ، ياربى ‥ ، ما أجمل الدنيا ما أجمل أن يعيش الانسان ألف عام ، وأن يكون طيبا ٠

العربة كبيرة لينة ، تميل فى جلال الى شارع رمسيس ، ثم ترسو الى جوار الرصيف ، وألتفت السائق الينا ٠

ـ أنزلو

عيناه ضيقتان ، باردتان كأزميلين ، وأنا عاجز عن تحريك عضو من أعضائى كأننى فى كابوس وصوت الزبث يصل الى وعيى مرتعشا يؤكد الكابوس ٠

ـ ماذا تريد ‥ ماذا تريد ‥

والرجل يكرر أمره ، شـــفتاه تتحـــركان بالكلمة لوحدهما منفصلتان تماما عن وجهه ، أستجمعت كل قواى لأهمس ٠

ـ طيب ‥ سوق شوية ‥ سوق شوية واحنا هنبعد ٠

الزبث تلبد فى جنبى مرعوبة ، بأى ثمن أريدها ألا تدرك ، أبحث فى عينى الرجل عن رجفة أرتكن عليها ، لكنهما جامدتان معبأتان تصميما ، هم من مجلسه مال على مسند المقعد ، مديدا ثقيلة كالمطرقة وفرق بين جسدينا وهو يفح بحقد ٠

ـ لأ ‥ آبعدو دلوقت حالا ‥ أنتو عايزين رخصتى تنسحب

أمتلأ وجه الزبث ذعرا جنونيا

ـ ماذا يعنى ‥ ؟ ماذا يريد ‥ ؟ مريع ‥

لم تر شيئا كهذا أبدا ‥

وأنا فى ركن المقعد مثل خرقة بالية مبلولة ، أتأمل كتفى السائق الممتلئتين العدائيتين ، والعربة تتماوج فى قاع ميدان التحرير الزاخر بالضوء ، أسارق الزبث النظر ، شاحبة تدخن كانت مهتمة بزينتها الليلة ، الآن تتلفت بسرعة ، خائفة حتى منى ·

السائق عريض الكتفين يقود باعتداد وشراسة ، ترى الى أين يأخذنا ، عيناى ترفان ناحية الزبث كأننى فأر فى شق ·· شارع القصر العينى ، كوبرى القصر العينى ، القصـــر العينى الجديد مسجد المنيل ثم دار من أمام المسجد داخلا الى ذلك الشارع الهادىء بين مستشفى القصر العينى والنيل متجها الى حيث طلبت منه فى الأول « كازينو يطل على النيل » أغمضت عينى محاولا اســـتعادة نفسى ·

ـ الزبث

ـ ·· ماذا تريد ·· ؟

ليس فى صـــوتها أدنى قدر من الحياة ، متعبة مزمومة الفم داكنة العينين ··

قدماى لا تحملانى ، درت حول العربة متمهلا ، السائق يثنى ذراعه القوية فى النافذة التى بجواره ، وجهه ممتلىء وأنفه صغير وعيناه ضيقتان ، لا ينظر ناحيتى ·· لو يؤتى به الى موثقا مهينا مترب الجبهة ·· كنت أمزقه أربا بأناة والتذاذ ·· الزبث تنتظرنى بعيدا ناكسة الرأس ·

كم حلمت بأن تكون لى فتاة أنيقة جميلة مثل الزبث ، وأن نمشى معا هكذا فى شارع هداىء نتكلم ، كم حلمت ، وكم حكيت لنفسى الحكاية وأنا فى فراشى أتأهب للنوم ، ودائما كان خاطرا مفزعا يهاجم الحكاية ولما تكتمل ، وأنا أتأمل يقظانا فى تهاويل السقف

المخيفة ، ·· القهر يخالط دمى يفسد على كل شىء مثل مريض الملاريا ·· ، أمسكت يد الزبث وأنا أحس بالدموع تسح فى قلبى ··

تسير ساهمة ، لا تكاد تحس بى ، نمشى بين الطاولات على النجيل الندى بالمساء ، الصمت والهمس والمصابيح المتباعدة والنيل الشاسع المستسلم لانعكاسات الضوء يبتسم بآلاف الثغور ابتسامات مروعة الخبث ·

ـ ماذا تشربين ؟

همست ·

ـ شيئا مثلجا

وأنا بالكاد فهمت ، وهى انصرف تالى سيجارتها تدخن بأناة

تلفت أبحث عن الجرسون لا أحد حولنا أبدا على البعد ـ فى نور الكشك ـ رجلان ، حجمان أنيقان ، يقفان بطريقة خاصة ، يدخنان ويتبادلان همسات وأيماءات غامضة ، تملك خطوط جسداهما تباهيا واستعلاءا ·· ، يتكلمان عنى دون شك ، وسوف يتقدمان الى حالا ويأمران بالقبض على ، وعندئذ يخرج من كل الجوانب المظلمة مخبرون على وجهوهم أقنعة شراسة مروعة ، فاننى متهم بشىء على وجه التأكيد ·· ، أغمضت عينى ، يفقد كيانى تماسكه يستحيل الى كمية من الرمل الناعم ، أغور ·· أهوى ، كأننى معلق بين ساعدين حديديين يحملانى ماضيين بى ·

وكالفهد يقفز الجرسون من ظل شجرة

ـ مساء الخير

أتطلع له ثابت النظرة كتمثال الشمع ، وهو يواصل ابتسامة المهذب المريض النازف رقة ·

ـ أيو يافندم

ـ حاجة ساقعة

ـ سيدر ·· ؟

ـ ممكن

ـ حالا

الصوت فى داخلى خاب كتنفس المحتضر ، · لكننى لا أريد أن أموت ·· لا أريد أن يفترس هذا الجنون حياتى ·

ـ الزبث

ـ ···

ـ ألا تدركين

ـ اننى لا أفهم ·· لا أفهم حقا

وضعت ذراعى حول كتفيها ، أتأمل الانعكاسات المترقرقة على صفحة النيل ··

ـ قساة كالكلاب المجنونة ·· غير فاهمين ·· وخائفون ·· كالقطاط المسمومة نحن ··

ـ يا الهى ·· اذن ·· كيف ·· أننى لا أستطيع

أسندت وجهى على رأسها ، أتنفس عطر شعرها

ـ الزبث ·· هل تحبيننى ؟

ـ لم أكن أبدا خائفة هكذا فى حياتى

ـ اننى مشتاق لك ·· لم أرك منذ ألف عام

ضممتها الى ، وجوه شاحبة من الرعب عائمة على صفحة النيل ، ماتت بأشواقها ، أضم الزبث ، الأسى يتقطر على جوانبى كما يتقطر الندى على صفحة زجاج ، ربما بعد ألف عام ،، اثنان بلا خوف يتعانقان هنا ··

خبط الجرسون الكوب فى خشب الطاولة ، يتناول الأشياء من مساعده ويرصها باعتناء ، ثم

ـ خدمة تانى يافندم ··

ـ شكرا

وحينما أنصرف أمسكت بيد الزبث

ـ أليس غريبا هو الآخر ؟

ابتسمت ، ثم ضحكت ، ضحكا مترقرقا

ـ يالها من أمسية

كم هى نحيلة ، أحس ضلوعها تحت ثوبها الخفيف

ـ رائعة

ـ أوه ·· لا ·· لا ·· ليست رائعة أبدا ··

أدخلت يدى تحت بلوزتها ، بشرتها دافئة ناعمة ·

ـ لكنك معى ·· وأنا مشتاق لك الى درجة البكاء

أتكلم الفرنسية كأننى لم أتكلم غيرها عمرى ، وهى تهر فى صدرى ، تهمس همسا رقيقا كورق الورد

ـ لا ·· لا ··

ـ فقط قبلينى يا الزبث · ·دعينى أقبلك ··

فمى يبحث عن شفتيها ، أمرغ وجهى فى نعومة خدودها تتنفس تنفسا مرتجفا مرتاحا ، ضـــغط شفتيها فى فمى بقوة ، وهى لفت ذراعيها حول رقبتى ، فتحت فمها على الآخر ، كيانها الصـــغير يتمرغ فى صدرى متهدج محموم ، تقضم شفتى وأسنانى ، تتقافز فى حضنى تدعك ثدييها الكبيرتين فى صدرى ٠٠ لم أجرب التقبيل أبدا بهذه الطريقة أن تلتهم الأنثى كلها فىقبلة أن تعطيك نفسها بلا تمنع تقضم تنهش تصرخ بأشتهائها بلا تحفظ ، ٠٠ فتحت عينى متوجسا مغمضة العينين مشعثه الشعر كأنها مجذوبة فى ذكر ، لففت ذراعى حول خصرها ، أخذتها الى ، يداى تجوسان فى ظهرها العارى الذى أنشقت عنه بلوزتها ، خصرها النحيل ، رباط سوتيانها ، الثديان الثقيلان ، كتفها الرقيقتين ، تجتاحنى حمى انتصار خارق ٠٠ ، ثم انفلتت منى كسمكة ، أرتمت فى كرسيها ملقية رأسها الى الخلف كطائر مذبوح ٠

المساء والنيل الساجى المندهش ، المصابيح المتباعدة ، الموائد الخالية ، الكراسى ذات المساند وحيدة فى الليل الذى أتصور حياته الدقيقة تولد الآن على الورقات ، وهى الى جوارى قربها يترقرق داخلى ٠٠

- الزبث

- نعم

ودوده بلا حدود ، وجهها رائق ، عيناها داكنتان فى الضوء القليل ، أبدا لم تعطنى عينان ماأعطتنى عيناها ٠

- ٠٠ نسافر غدا الى قريتى ٠٠

- ٠٠ اليوم ٠٠ نحن الآن غدا

ارتعشت شفتاى ضحكا ، ضحك متهدج كالبكاء ٠

سوت شعرها بكفها ، وسارت ، أحمل عنها حقيبتها ، ذراعاى حول كتفيها ، أضم نحولها الى ، عطوف مثل الأب الكبير ، طرفت ناحيتى وأبتسمت ٠

ندب وحدنا فى الليل ، تركوا لنا المصابيح مضاءة وناموا ، كم أريد أن أقول لك عنهم أشياء يا الزبث وهم نائمون ، كل الأشياء التى لا أستطيع أن أقولها وهم صاخبون حولى بضجيجهم ٠

درنا حول مبنى القصر العينى ، همسات فى النوافذ العالية ، هيكل انسان فى مربع النافذة الشاحب الضوء مريض يوغل بعينيه فى الليل ، هل هو من قرية بعيدة ، قضى هنا زمانا وملأه الشوق الى أن يعود ٠

ـ أتعلمين يا الزبث ٠٠

ـ نعم ٠٠

ـ كنت يوما ما مريضا فى هذه المستشفى

ـ ٠٠٠

وكنا نجلس نلعب الورق على بلاط العنبر ، كنت اعرف عددا من اللعبات المضحكة ، وحولى المرضى ، أطفال كبار ، وجوههم ليس فيها لحى ، ممتلئة وشاحبة ، ناعمو الجلد ناحلون بالمرض ، لهم ضحكات واهنة كالأطفال ٠٠ أطفال كبار ٠

ـ أنت تفكر ٠٠ ؟

ـ فى طفولتى

ـ لم تكن سعيدة ٠٠ ؟

ـ لم أكن أبدا طفلا صغيرا

ـ أحقا ·· كيف ·· ؟

ـ كنت مريضا دائما ·· لا أستطيع اللعب مع الأطفال ···
دائما فى حجر أبى ·· أسمع لاصحابه العجائز ·· ملاؤنى حزنا ··

ـ انك غريب

ـ معبأ بالسنين ·· كالزكيبة ··

ـ ودائما تتأمل محتويات هذه الزكيبة

ـ لكنك جئت ·· أخيرا جئت ·· وأننى لأسألك ·· ماذا أنا لك ·· ؟

ـ كم كنت خائفة أن تسألنى ·· فأنا لا أدرى ·· لم أفكر ··
أنت تجرفنى بحيث لا أفكر ·· كنت حريصة على ألا يحدث ·· هل فهمت ·· أن تمر بمكان ما سريعا ··

تحاول طبعا أن تتجنب الارتباط ·· كنت حريصة طول الوقت ·· هل تفهم ··

ـ نعم

ثم أمسكت يدها بقوة ، أخاف أن أتركها فأهوى الى قيعان سحيقة ·· قلت متوسلا ··

ـ لكننا سنسافر معا ·· ؟

رفعت الى وجهها

ـ أوه ·· كم أتطلع الى هذا

ليس فى العالم أجمل من وجه أنثى محبة

- ٦ -

قفزت من الأتوبيس ، طرت فى الشارع الجانبى ، المصـــابيح المتباعدة تتنفس ضوءا خافتا تحت أقدام العمارات الهائلة ، أجرى أرطم أسفلت الشارع بحذائى ، الحيطان العالية تخنق الصدى ، يسقط مكتوما ، لكن فى داخلى كمية من الحيوية يمكن أن تضع فى هذه الأجساد الحجرية أرواحا ، تجعلها تتحرك ، أو ربما ترقص هكذا بأقدام مزلزلة أننى مجنون حقا .. أننى ذاهب بها غدا الى قريتى ..

ضغطت زر المصعد ، سمعت خشـــخشة الاستجابة فى الآلات البواب ، نائم على دكته لا أريد ، أن يستيقظ ، لا أريد أن يقتحمنى أحد ، فى داخلى صخب ، حوار زاعق بلغة غريبة ، أضم جوانجى على الفوضى مسرورا .

المصعد يتهادى وأنا أخبط الحيطان فى ذلك القفص الخشبى المضاء ، حتى رسى على الدور الأخير ، صفقت الباب وكبس الظلام، أمشى أتحسس ، أضحك للعتمة تحكم كفين سوداويين على عينى ، تمازحنى ..

قطعت الباحة أمام صف الحجرات قافزا ، دفعت الباب داخلا حجـرتى ، أضأت النور ، أخى على ســـريره ينظر لى ، عينـــاه

الصـــغيرتان البنيتان مليئتان بالاتهام ، أنه لا يغفر لى ، تخاذلت جالسا على السرير الآخر منكسا رأسى ، ٠٠ كم أريد أن أعرف على وجه التحقيق ، لكنه يذودنى بعينيه المليئتين قنوطا ٠

ـ تيجى معانا البلد

رفعت بصرى اليه مخالسا ، وحيد وحدة ســـاكنة قاتمة ، منصرف تماما الى سيجارته بعيد عني تماما ٠

ـ لا ٠٠ عندى شغل

على أن أترك كل شيء وأبقى بجانبه ، أفتح قلبى له ليملأه بالقتامة الحالكة ، ذعرت ذعرا شديدا ، أريد أن أخرج ، أن أنجو بمسرتى ، سأذهب الى صلاح ، اتصلت به تليفونيا أمس مســـاءا وقال أنه سيأتى معى الى البلد ، أختطفت أشيائى وطرت هاربا ٠

وقفت على الرصيف انقل قدمى قلقا ، امتداد ساكن من قطرات الضوء المتعاقبة ، ياللسكون لكنهم تركوا عيون اشارات المرور تقول للناس لا ونعم بالأحمر والأخضر ، طعم عناقها فى صـــــدرى على يدى ، فى شفتى ٠٠

قفزت لاحقا بآخر أتوبيس ، مضى هادرا كالاعصار ، الناس فى المقاعد نظروا الى ثم عادوا يعكفون على ذواتهم ، لحاهم نابتة وشـــاحبون ومجهدون للنهاية ، ينزلون فى بعض المحطات ويركب آخرون ، طيور ليلية غريبة ، وتعود العربة تنطلق بأقصى سرعة ، أرتكن على فتحة الباب ، الهواء يزأر فى أذنى ويثلج وجهى ٠

ثمة نور فى شباك بيت صلاح ، طرت عابرا الدرجات القليلة ، ضغطت الجرس فتح الشراعة أولا ، ضـــحكت لحذره ، عيناه فى نظارته السميكة يعبران من فوق كتفى الى باب الشقة المقابلة مشقوق وفى الشق تبرق عينان متلصصتان ، ضـــدك هو أيضا ثم

أغرقنا فى الضحك وقبل أن أصفق الباب خلفى تطلعت الى أعلى ، الأدوار تتابع فى العتمة ، أبواب الشقق ســـاكنة مغلقة على ناس معادين ··

على مقعدين حول مائدة الصالة جلسنا نتبادل النظرات ، ثم أغرقنا معا فى الضحك مرة أخرى ··

ـ أولا ·· تحب تاكل

ـ ميت من الجوع يا صلح

ـ طيب دقيقة واحدة

أبتسمت وأنا أرى ظهره الجميل التكوين ، يمشـــى خطواته الجادة الحازمة نحو المطبخ ، ·· هكذا تتم المسألة منذ سنين . أجلس ثم ينظر الى ويسألنى جادا

ـ تحب تاكل

ـ ميت من الجوع ياصلح

وبنفس هذه الخطـــوة يمضـــى الى المطبخ ، لحقت به رائحة اللحم فى السمن ، ورائحة مطبخ صلاح ، درت بعينى ، أخذت فضلة رغيف ، قضمتها وبدأت أمضغها ، ينظر لى مبتسما لجوعى :

ـ استنى ياسيدى دقيقة واحدة ·

أسنانه لامعة شعره مصفف باعتناء ، منذ خمسة عشر عاما لم يتغير فيه شىء ، هو ·· هو صديق طنطا والمدرسة الثانوية ··

ـ فاكر باريس ·· ياصلح ··

كنا نسمى مقاهى طنطا بأسماء عواصـــم العالم ، أطلبه فى التليفون ·

ـ مستنيك فى باريس ياصلاح

ـ جاى حالا

ويأتى ، حليقا مصفف الشعر ناصع القميص ، وأضع بيننا على طاولة المقهى لهفة الآت من القرية ، مترب ملىء القلب بالشوق وهو قبالتى يبتسم من أسنانه اللامعة ، وبهوادة يخرج من جيبه الورق الذى أعرفه ، أهتف به ·

ـ جالك جواب ·· ؟ مش معقول ·· من مين ·· ؟

ـ من كرستين ··

كنا نراسل الفتيات ، نتلقى الكلمات والصور ونقضى الليالى بجوار القواميس لنحرر الخطابات ونرسل بطاقات البريد ·

ـ فاكر ياصلح

يبتسم ساهما

ـ فاكر

ـ كنا نتمنى واحدة من اللى بنراسلهم تيجى

غام وجهه بسحابات الشك

ـ بس الوقت ضيق ·· يدوب ·· ومافيش نتيجة

زمجرت غاضبا

ـ دايما تلاقى فى أى حاجة غلط

ـ أنت اللى خيالى يا حكم

ـ الشمس هتطلع علينا فى البلد ·· معاهم ·· رائع ·· مش كده ·· الباقى على الله ··

على مائدة الصالة كنت التهم قطع اللحم واحدة وراء الأخرى أخذ صلاح لنفسه قطعة صغيرة تاركا الباقى لى أجهز عليه ..

تركنى صلاح الى دورة المياه وأنا استلقيت على الكنبة الطرية فى حجرته ، دائما أفضل هذه الكنبة حينما أبيت عند صلاح ، وثيرة ناعمة ، وبجوارى التليفون أسود ناعم ولطيف ، ما أن تدير القرص حتى تأتيك صوت انسان بعيد ، يجيبك بما تريد ، دون أن تقطع الآماد ثم تطرق الباب وتنتظر قلقا من يقول أنه غير موجود .

وفى المواجهة مائدة الرسم الهندسى ، مكدسة بالأوراق الكراسات والكتب والقصاصات والافلام - أشكال غريبة من الاقلام - والعلب الصغيرة ، عشرات من العلب الصغيرة والمدى والتذكارات وتذاكر السينما وعلب الكبريت والولاعات ، عالمصلاح - الضعيف البصر - الذى تفتتنه الأشياء الدقيقة يرفعها الى عينيه يتأملها وهو غارق فى سحابات الدخان .. جاء حليقا وجهه فى منشفة .

- تحلق .. ؟

تحسست ذقنى ، نابتة ، نهضت ، فى المرآة وجدتنى شاحبا كئيبا ، عيناى تبرقان بريقا غريبا ، شفرة الحلاقة مزقت جلد وجهى وأسالته دما ، صلاح خلفى يضحك كلما جففت وجهى ، عادة البقع وتندت دما ، صففت شعرى ، بدأ جلد رأسى يلمع ، غامت روحى لكننى قهقهت فى داخلى هاتفا لنفسى « لكننى لازلت أملك قلبا شابا »

جلست على كرسى الصالة ، أجفف بقع الدم فى منشفة ، صلاح يلوح لى بالمنبه ..

- نظبطه على كام

- أربعة ونص

عكف على المنبه وأنا سهمت قليلا ثم قلت لصلاح هامسا :

ـ ايه يا رأيك ياصلح لو ندردش للصبح ..

فان قلبى ملىء ، ملىء مثل عمرى الذى أزدحم بالسنين ، والمخاوف تحاصرنى ، آتية من صمت هذه الشقة الأرضية الرطبة التى تبرق فى أغوارها البعيدة عيون القطاط ، تكبس بسحبها القاتمة على صحوة أشواقى ، أتأمل وجه صلاح كيف تخبو أشراقة الروعة القديمة .. ؟ ، لكنه هنا طول الوقت ، فى العتامة ، فى هذه الشقة الأرضية ، تتابع فوقها أدوار البناء شقق محملة بناس معادين ، وما يكاد يفتح النافذة فى باب الشقة حذرا مستطلعا حتى ينشق باب الشقة المقابلة عن عينين بارقتين متلصصتين .

ـ ننام ساعة على الأقل .. عشان نقدر نمشى ..

يحتضن بين كفيه معدن المنبه ساهما ساكن الملامح ، .. ياربى .. الطلاقة تبهت فى اعماقى كما يبهت الطلاء على الجدران القديمة ، وانا وحدى ، أشبك صوتى بعصاى واندفع نحو فرحتى وحيدا وسط ضباب الكآبة ..

ـ فاكر ياصلح .. زمان

لم نكن ننام ، نقضى كل لحظة من أيامنا فى ذروة من اليقظة ، .. تحرك فى مكانه ليدارى مشاعره ، نفض زهرة سيجارته ..

ـ فاكر

ثم يشرع وجهه الى مبتسما ابتسامة خافتة ..

ـ الحياة لازم تكون كده .. انلاق

يحرك يده حركة بديعة وهو ينطق كلمة « انطلاق » يعرف الكلمة معرفة تامة ، حينما غامت معانى الكلمات جميعا ، شاهث ،

فقدت قدرتها على الايماء والاثارة ·· ، لا أتابعه بقدر ما أصلى صلاة حارة لاستعادة الحلم ·

ــ لما كنت فى المانيا ·· كنت مستغربا من نفسى ·· أزاى بتصرف كده ·· هناك يا حكم الواحد بيتحول لطائر ·· لكن هنا ·

يقضى معظم وقته فى شقته ، يهمس فى سماعة التليفون همسات تحمل من السعادة أقل القليل ··

ــ ·· أوروبا شىء مختلف ·

الراء ذات جرس خاص ، والباء ، الكلمة رفـــافه من فمه كالحلم ، ســـحابات غريبة تجتمع فى صـــفاء وجهه ينفض زهرة سيجارته ··

ــ ياالله ننام ياحكم شوية ··

أتأمل ظهره منصرفا ، كم أحبه ، كنا نفرد قلعا واحدا بيننا ونطير ··

سحبت الملاءة على جسمى ، أريح ظهرى على طراوة الكنبة · ·· لو كانت معى الآن ربما كانت جلســـت هاهنا ، على كرسى واطىء بجوارى ، صغيرة نحيلة الكتفين ، تدخن وتفكر تمنحنى الامان ، التشوف والتحنان يئن فى عظامى ، كم أنا مجهد ، هى ما ما أريد ·

قلت لنفسى « يجب ان أنام قليلا لأظل يومى يقظانا ·· » لكننى لم أصدق ، مفتوح العينين ، ممتلىء القلب بتدفق غامض وثاب ، الظلام حولى كامل ، ثم يتألق فسفور المنبه رويدا ، تطير فرحتى حوله كالفراشة ، يولد الضحك فى صـــدرى صلاح يكركب أشياءه تصورته دائرا فى الغرفة الداخلية يتأمل حاجياته مدققا ،

آخر شيء يلمسه قبل أن ينام نظارته ، وحينما يخلعها سوف يفتح عينيه الكليلتين فى ظلام دامس ، ياربى ·· أرجو الا يقتلوه ·· أنه يحارب معركته بتؤدة وأناقة وتصميم كأب مبتسم ، رؤساءه اللصوص فى الشركة ، جيرانه الذين يكرهون وحدته الباسلة ، والفتيات اللاتى ينتشرن على أطراف خطوط التليفون ، لا تمنحه واحدة منهن مشاركة أو حبا ، يتربصن كالقطط الجائعة تريده كل واحدة لنفسها ··

أنصت لنبضات المنبه ، أتأمل تريث عداد الدقائق الثقيل عند كل قطرة ضوء فسفورية ·· ويبدو أننى قد أخذتنى سنة من النوم فقد أستيقظت فزعا ·· وكان نصف ساعة قد انقضى ·· ظللت أحدق الميناء المضىء دون أن أطرف ، حتى أصبحت الساعة الرابعة والنصف ·

قفزت من فراشى ومشيت حافيا على البلاط البارد ، قطاط صلاح من الاركان لامعة العيون ضغطت على الزر فأنطلق الضوء انبعثت الحيطان والزوايا الحادة والأشياء المتسخة ، نحيت السحابة التى رانت على روحى وأمسكت التليفون وأدرت الارقام منصتا لكرير القرص المتراجع ·· ، جاءنى صوت رجل غارق فى النعاس ، طلبت أن يصلنى بغرفتهن ، تكه تتلوها نقرات متتابعة ثم رنت فى اذنى شهقة مذعورة ·

ـ آلوه ··

تصورت ايلين فى منامتها مفزوعة العينين ·

ـ حكيم · تعلمين ·· سنسافر اليوم ·· هل انت نائمة ·· اذن تفهمين ·· ؟

ـ أوه ·· طبعا ·· فاهمة ··

وضعت السماعة على التليفون ، لابد أن غرفتهن الآن مظلمة دافئة ، ولابد أن أيلين عادت للنوم دون أن تدرك شيئا ٠

هززت صلاح فى فراشه بعنف ، أستيقظ ملسوعا يبحث عن نظارته ، تأملنى قليلا ثم أغرق فى الضحك ، سألته ٠٠

ـ أيه ٠٠ ؟

ـ أنت مانمتش ولا أيه ٠٠ ؟

ـ نمت

ازداد اغراقا فى الضحك حتى آستربت فيه ٠٠

ـ ٠٠ مالك ٠٠

ـ أنا متأكد أنك مانمتش نهائى

ـ قوم بلاش فلسفة

ـ كلمتهم ٠٠ ؟

ـ ٠٠ بس أنا متأكد انهم راحوا فى سابع نومة تانى ٠٠

عدت مرة أخرى الى التليفون وكانت ايلين أيضا هذه المرة

ـ نعم ٠٠ حكيم ٠٠ أننى يقظانة ٠٠

ـ حسنا ٠٠ لكن ٠٠ أين الزبث ؟

ـ لا أدرى ٠٠ تصور ٠٠ غريب ٠٠ لا أعرف حقا ٠٠ ربما نامت فى غرفة أخرى ٠٠

سأطلب من الرجل أن يصلك بها ٠٠

ثم جاءنى صوت الزبث

ـ ألوه

ـ صباح الخير يا الزبث

ـ صباح الخير ·· سأعد نفسى حالا ·· حدث خلط · · نمت فى غرفة أخرى ·· المهم ·· سأعد نفسى حالا ··

ـ سأحضر تاكسى وأنتظرك تحت ·

انطلقنا فى برودة الشـــــارع ، الأشـــــجار فى حدائق الفيلات مستسلمة للظل ، والحيطان بيضاء من ضوء المصابيح الساهرة ، وكان ثمة منزل قديم خرب يبرز قذرا شائها عن البيوت ، يملك جسارة عين جامع أعقاب سجائر ، لكننا طائران على أجنحة خفاف ·

بذلنا جهدا لايقاظ سائق تاكسى ، فتح عينيه ثم أدار المحرك وأنا متأكد أنه مازال نائما تماما ، العربة تهدر منطلقة كالرصاصة فى صمت الشارع ، أكلم صـــــلاح محاولا نسيان مخاوفى ، والرجل صامت منصرف للقيادة ، وصلاح يدخن جادا سرحانا ولا مباليا ·· صرت عجلات التاكسى فى الأرض ثم وقفت أمام با بالفندق ومن زجاج التاكسى رأيت الزبث قادمة ·

كان ذلك يوما صبحا مبكرا مثلوجا ، وكانت هى ابنة النحال المسيحى ، خبطت على باب بيتهم قبل شروق الشمس ، نزلت ناعسة محمرة الوجه ذابلة العينين، مدت لى يدها تحمل علبة العسل ، لكننى أحطت خديها بكفى ، وجهها ملء يدى دفئا ، مالت ، نعست على يدى مغمضة العينين لثوان ، وقلبى يقطر عذوبة رقيقة كالدموع ، ثم أستدرت خارجا وفى يدى علبة العسل ·· كان بيتهم على شاطىء الترعة والضباب كاسى ، وصقال الماء مشتاق لاوائل الضـــــوء الصبحية ·· ، لم أكن عرفت البنية قبلا ، ولم أرها بعد ذلك أبدا ، لكن دفء وجهها لايزال ، يصحو فى كفى كل آن ··

يبدو أننى كنت أحدق فى الزبث بقوة ، رفت فى مكانها وبدأ وجهها يصحو وهى تطرف ناحيتى ، وأنا أيقظنى صلاح يصفق باب التاكسى نازلا ، نزلت أنا الآخر . الزبث تقدم صديقتها لصلاح ·

ـ ايلين

ثم تقدم نفسها

ـ الزبث

وأنا قدمت لهم صلاح

ـ صلاح صديقى ·· انسان رائع

يبتسمون جميعا ، وصلاح يسلم عليهما رقيقا ودودا حذرا ، وايلين طويلة مجهدة مرتبكة ذابلة العينين ··

انطلق التاكسى الى باب الحديد ، صلاح بجوار السائق ، والزبث بجانبى ، تبادل ايلين كلاما فرنسيا سريعا لم أفهم منه شيئا لكن حقيقة أنها هنا بجوارى ، لى ، كشىء فضى ناعم ، حقيقة رقيقة تسرح نعومتها فى كيانى ·

شمس صفراء رقيقة على الرصيف ، الذهب فى عيون ، الزبث وعلى وجناتها ، أعرض عليها التذاكر باسما ·

ـ تذاكر للذهاب والرجوع ·· توفر ربع النقود ·

ـ ذلك طيب ··

كان قطارا صباحيا طيبا ، وئيدا فى صفيره وانطلاقه ، خال من الناس تقريبا ، ركبنا فى آخر عربة ، بابها مفتوح ، على دفتى الباب

وضعت يدى مرتكزا أنظر لخط القضبان الذى ينزلق تحتنا كشريط لطيف •

الزبث تجلس فى مقعد لوحدها ، جلست أمامها مرحا مكدودا أضحك لها ، فستانها الورد ، نظارتها ، حقيبتها الحمراء بجوارها ، ساقاها ممدودتان على مقعد بجوارى ناحلتين بيضاوين ، ابتسامتها ذكية حازمة حنونة •

القطار يقف كل آن ، الأرصفة مفروشـــة بالشمس ، الأولاد الباعة نديو الثياب بالطل ، المسافرون غارقون فى الارتباك ، حائرو العيون ، والنساء مثقلات الرؤوس بالقفف والسلال ، لكن عربتنا لا تدرك الرصيف أبدا تمضى المحطات ولا يصعد اليها المسافرون ، الى أن أقبل شابان ، عاملان فى السكة الحديد ، جاءا وجلسا الى جوارنا فى نوع من التحدى ، لكننى ممتلىء طيبة ومرحا ، ألقيت اليهم وجها ودودا ، أنكسر شىء فيهما ، بدا يتفرجان علينا بلهفة وحب •

نزلنا محطة طنطا ، كم هى شاسعة ، هنا كنت أفر من العساكر صغيرا ، مذعورا كدجاجة مطاردة •

ـ سنأخذ قطارا آخر يا الزبث ••

أقدامها الصغيرة ترف على أسفلت الرصيف الذهبى بشمس الصبح •

ـ أحقا •• ؟

وجنتاها جناحان ورديان لطائر منطلق •

ـ كنت آت الى هنا بقطار الصبح للمدرسة •

ـ مهه ••

أهدابها تسقط ظلالا دقيقة على ذهب عيونها ••

ـ لو رأيتنى وقتها ربما كنت ضحكت ٠٠

قصة شعرها على جبينها جافة والجلد من تحتها ناصع البياض ومما دونها ملوح بالشمس تتأملنى عيناها خضراوين ذهبيين ٠٠

ـ ربما لم أكن لأضحك أبدا ٠٠

ـ لكننى كنت ألبس ثيابا مضحكة ٠٠ أنظرى حولى دهشة ٠٠ مفتوح العينين خائفا أجرى من العساكر ٠٠

ـ تجرى ؟

ـ عادة لم أكن أحمل تذكرة

ولازلت لا أحمل تذكرة يا الزبث غريب غربة مذهلة ، خائف من العساكر ، كم أنت صغيرة ، أنحنى لكى أرى عينيك أحس أنك تستطيعين احتوائى ، عناق غربتى وشجنى ٠

ايلين تلحق بنا ، ألتفت لها ، هاربة من مودة صلاح الرقيقة وهو وراءها على البعد عذب خجل قليلا ، تهتف شاهقة ٠

ـ هاللو ٠٠ الصباح جميل عندكم ٠٠

ابتسمت لها الزبث ، تحادثتا هامستين ٠

آكره ما يؤرق تأملى لوجه الزبث ، أريد أن أحدق فى عينيها طول الوقت ، أفكر ، معبودة من نوع فريد ، لا تضع فى احساسا داعرا ما ، كم احتضنت فى أحلامى نساءا ، لكنها ليست كالنساء روح جادة حنونة ٠٠

القطار يمضى على القضبان ، عيدان الحلفاء تنصرف مسرعة وشـــجرات الجميز الكبيرة البعيدة تمشى الهوينا كالجمال الثقيلة الأحمال ، أبتسم فى داخلى ٠

ـ أنت تفكر ·· ؟

جالسة قبالتى ··

ـ نعم

ـ فيم ·· ؟

ـ فى هذا الرجل ··

فلاح صغير نحيل يقف وسط قطعة أرض صغيرة على حافة القناة ··

ـ كان ثمة رجل مثله تماما ·· يأتى الى دارنا وفى يده حزمة خضار ·· هدية لنا ·· ثم جلس معنا الى الطعام ·· صموتا ·· لطيفا ··

ـ ان له كوخ ظريف ·· نظيف من داخله ·

ـ على قدر ما يستطيع ··

رمقتنى صامتة ··

ـ أحيانا كنت أزور هذا الرجل

ـ ······

ـ يقسم عالمه ··

ـ عالمه ·· ؟

ـ يقسم قطعة الأرض الصغيرة الى أقسام ·· فى كل قسم يزرع شيئا مختلفا ·

ـ ·····

ـ لا معنى لحكايتى ·· هه ؟؟ لكن صورة الرجل ·· وجهه الحزين ·· أحمله فى قلبى ·

ـ أننى أفهم ·· أننى أفهم حقا

ـ أنظرى يا الزبث ·· على البعد ·· هناك قريتى ·

قامت واقفة تنظر ناحية القرية ، زغب ذراعها يدغدغ جلدى ، التفتت الى ممسكة سيجارتها فى قلق ··

ـ هناك ·· أمامهم ·· هل أستطيع أن أدخن ·· ؟

ـ لم لا ·· تستطيعين طبعا ··

محطتنا ·· الرصيف واللافتة القائمة وفيض الشمس الصباحية ·

ـ أترون ·· هذا الكوم من المنازل الطينية ·· هو قريتى ··

هتفت ايلين متأملة القرية البعيدة ، وصلاح يبتسم ابتسامة عارفة ··

ـ الهى ··

وضعت الزبث نظارتها السمراء ، علقت الحقيبة فى ذراعها ، هادئة شاردة ، مشينا نازلين ··

الناس السارحون ببهائمهم ، بهائم مندهشة عبيطة العيون ، أقرىء السلام ، والناس يردون من تحت عيون تظرف محاذرة . الجواميس الطيبة تشن من أنوفها والعيال ككلاب الصبح لفرحة يبرطعون على الأرض الندبة ··

آخذ الزبث الى عالمى ، ناس أعرفهم دون تبادل ، بعيونى بعيونى أحس ملمس أيديهم ورائحة ثيابهم ، فى القاهرة لأعرف

الشوارع والعمارات الشاهقة وأرى الناس ، لكننى لا أعرفهم ، ثمة شيء حولهم كالاسلاك الشائكة ، تمنعنى من الاقتراب منهم ، ... آخذ الزبث الى دارى ..

تاجر المواشى الأجش الصوت الضخم الرأس يدير وجهه الى الجهة الأخرى خجل كطفل ، لكننى أحاصره بالسلام ، رد مسرعا وطار هاربا ..

الناس الذين أحبونى دائما يلقوننى بالابتهاج والتوقير الزبث دهشة ..

ـ لماذا سلم عليك الناس جميعا .. هل أنت رئيس هنا ..

ـ لست أبدا رئيسا .. لكن المسألة هكذا .. حينما يرتدى صبى بذلة ويحمل كتبه ذاهبا الى المدرسة .. يحبونه جميعا .. ربما .. دهشة أو خوف .. أو أمل ..

السرور يضحك فى وجهها ..

ـ ما هذا .. ؟

ـ مزرعة الحكومة .. يجربون .. يبحثون .. عن نباتات تعطى محصولا أوفر ..

ـ ....

ـ وهنا سيبنون مستشفى صغير .. زمان كنا نركب الحمير ثلاث ساعات لنأخذ حقنة ضد البلهارسيا ..

ـ أوه .. كان ذلك قاسيا ..

ـ وهذا الخزان يمد القرية بالماء النقى .. ألست مرشدا سياحيا ممتازا .. ؟

ضحكت دون أن تجيب ، نمضى أنا وهى بعيدا فى المقدمة ··

ـ الزبث ·· هذا بيت أختى ··

أمام باب الدار تكب الماء من وعاء فى يدها ، قصيرة وسخة الثوب من شغل الدار ، أول قلب محب يقابلنى عند باب القرية ، أشتعلت حنينا لها ··

ـ الزبث هذه أختى ··

أندفعت نحونا معانقة وفمها يهمس فى قماش قميصى ··

ـ أهلا ياروحى ·· أهلا ياحبيبى ·· من اللى معاك دول ·

ـ ناس من سويسره

ـ منور أنت وضيوفك ياروحى ·· خذوا القهوة ··

تتأمل هدومها المتسخة ·

ـ حاجة أختك نضيفة ·· الشغل مخلى الوحدة زى المكنسة ·· قطيعة ··

الزبث خلفى تنظر ·

ـ سويسره أيه دى ياخويا

أقدم لها أختى

ـ أختى ··

ـ أحنت رأسها محيية

ـ هاللو

التفت لأختى

– بتقولك أزيك

– تسلمى ياضنايا ··

وسيل من كلمات الترحيب تبادله الزبث بكلمات الشكر تتكلمان ويلوحان كأنما تتبادلان تفاهما عظيما ، وأنا مائت ضحكا ، ثم ربتت أختى على كتفها ، ثم أخذتها بين ذراعيها وضمتها اليها وقبلتها ، والزبث تخلع نظارتها التى كادت تسقط وجهها قرمزى بالانفعال . وعيناها تلمعان بفرحة حنونة غريبة ·· ، جاء صلاح وسلم ، أما ايلين فقد وقفت بعيدا خجلة ··

مشينا أحس عينى أختى فى ظهرى ، هكذا تكون المسألة دائما أمضى أتفيأ فى حنانها ولا التفت للوراء ··

الناس يخرجون من أبواب الدور من على المصاطب ويأتون مسلمين والبنات ينكسن عيونهن خجلات ويسلمن من بعيد حذرات . والعجائز يقبلننى قبلات عديدة على وجهى ايلين بعيدة تعض أصبعها دهشـــــة ··

مررنا بباب دارنا موارب عن عيون أمى وأخوتى دق قلبى لكننى واصـلت السير الى الدوار ، أخى الصـــغير فى انتظارنا . يســـتحضر مفرداته الانجـليزية القليلة ليقوم بواجب الترحيب . صعدنا الدرجات القليلة الى الشرفة · الأرائك الخشبية المفروشة بالحصير الأبيض تدور حول الحيطان · دخلنا الى الغرفة الكبيرة كريتون الكنبات البنى القاتم ·· أى جهد بذلوه لكسح أكداس التراب ولتبدو الغرفة نظيفة هكذا ·· وضعوا حاجاتهم على رخام المنضدة الهائلة ووقفوا فى وسط الغرفة يتأملون الصور المعلقة على الحيطان الباهتة النقوش ، كم ازدهت هذه النقوش بضوء الكلوب فى الليالى وكم صــــخبت بأحاديث الرجال ، وكم كان جليلا أن ينهض الناس جميعا وقوفا حينما يدخل أبى ، الأشياء الآن ساكنة وموحشة ·

ـ الزبث ·· هذا أبى ··

سابغ الثوب ناصــــع العمامة مفعم العينين بالشجن ·· كم يفجعنى أننى لا أستطيع أن أضع صرة حياتى جميعا فى قلبها ·

ـ صفعنى بابتسامه وتجهمه ··

لم يفهم أحد شيئا أطرقت قليلا ثم انطلقت خارجا ··

جريت الى الدار ، الرطوبة الأليفة ، أمى وأخواتى يلقفننى ، صدر وراء صدر ، وأنا أضمهن الى أوجاع قلبى ، أخذت أمى يدى تقبلها ، **تركتها لها متراجعا أجلس على المصطبة مغمضا** عينى ، الروائح القديمة تتسرب الى صدرى من السكون ، زرق الدجاج ، وعطان الزير ، أنصت الى القطرات تساقط فى ايقاع عميق ··

فتحت عينى مبتسما ، شاحبات سمينات نظيفات الثياب ، وهج السرور ألوانى يغالب كآبة القعود الطويل فى حبس الدار ، يتأملننى ورثن عن الأم هذه العيون الضيقة الكابية المتأملة فى تساؤل عاتب منكسر مرير ·· ، أما أنا فقد ترك لى أبى عينين بنيتين واسعتين هائمتين مشوقتين ·· هأنذا ·· أطوف ما أطوف ثم أعود ، أضرب بقبضتى حيطان الدروب المسدودة ثم أرجع ، أرقص رقصاتى الملتاعة ثم أنثنى مكسورا ، أمى ·· شىء فى داخلى يحترق ، يدفعنى تحت أقدام الحيطان العالية ، شـــاخصا الى النوافذ التى لا تطل منها وجوه عارفة حذونة ، يخترمنى الزحام ، يسرق أشيائى ويروعنى بالأصداء الجوف ·· ولا شفاء لى ·· فاننى خائف ، خائف من هذا الصمت الرطب الموحش الكامن فى عينيك ··

ـ عملنا كل حاجة ياخويا ··

ـ ··· شكرا

ـ أنت تعبان ··

ـ لأ ·· عاوز أخرج ··

غيرت ثيابى لبست صدارا وجلبابا ، رحابة الجلباب تطلق أسار أعضائى ، جريت خارجا ··

ابتسم لى صلاح وغالبت الزبث ابتساما دهشا وهللت ايلين :

ـ ما هذا ·· لقد تغيرت تماما ··

وورائى كان أخى الصغير يحمل صينية الافطار وضعها على رخام المنضدة ، عسل أبيض قشدة ، بيض مسلوق محمر ، جبنة قديمة ، قراقيش ، لم يعد دلدينا حقل ولا بهائم ، لكن أمى لديها دائما طعام طيب لضيوفنا ، كم عاد أبى من الاسفار صاخبا يطلب الطعام للرجال وهأنذا ·· ثم أطير مرة أخرى راحلا ··

ايلين تأكل كدجاجة جائعة ، وصلاح يمضغ اللقيمات وهو يدخن ، والزبث تشرع ناحيتى عينيها الجميلتين ··

ـ ·· أنه طعام طيب ··

ـ الزبث ·· تعالى أريك دارى ··

أخذتها من يدها نجرى معا الى الدار ، عيون الأطفال اللامعة فى وجوههم المتسخة · أبتسم للدهشة الطفلية وأجرى ، دفعت الباب الثقيل مندفعا الى عتامة الدار ، أمى تعانق الزبث ثم أخواتى ، يتحلقن حولها ، وهى فرحة لا تدرى ماذا تفعل كطفلة على وشك ان تجرى حول عصفورها الحبيب الذى يوشك أن يقع فى يدها ، تمشى فى الدار كأنما ولدت فيها ، الجدران الطينية ، بنانى الحمام ، السقف المسود من الدخان العريشة الحافلة بأعشاش العصافير قفزت رافعا يدى الى أعلى ··

ـ هذا بيتنا ‥

وهى تدور بعينيها حيث أشير بارقة العينين متوردة الخدين ، جذبت يدها وسرت بها ٠

ـ انظرى ‥ ذلك هو الفرن ‥ تعالى ‥ اجلسى ‥

موقد ملىء بأوانى الفخار ، جلست أمامه على كرسى واطىء أخذت عود حطب وقذفت به الى الحنية ، ضجت أخواتى بالضحك والتهب العود نارا ‥

وتسال سرب كتاكيت تحت أقدامنا دهشا خائفا ، أخذت الزبث واحدا على كفها بحنان ، صعدت على سلم وأحضرت لها فرخ حمام أزغب حائرة ماذا ترى أولا ، وجهها يكاد يبك دما من سرورها ٠

ـ الزبث ‥ تعالى ‥

صعدت درجات السلم قفزا ، وهى تجرى ورائى ، عند آخر درجة انكشف الأفق ، أكوام الحطب على أسطح الدور ، مخازن الحبوب الطينية ، شجرات الجميز القديمة والنخلات وأشجار التوت والكافور قمم خضراء تستند على جذوع متغضنة بالقدم فى الباحات أمام الأبواب المؤدية الى قيعان الدور ‥

ـ الزبث ‥ أنظرى ‥ بلدنا ‥ مئذنة المسجد ‥ سأقول عن هذا المسجد كلاما كثيرا ‥ سأكتب عنه كتابا ‥

تلهث مبهورة ‥

ـ الزبث ‥ هل تذكرين ‥ غرفتى ‥ هذه هى

ـ أحقا ‥

اندفعت أسحبها الى الغرفة ، عارية تماما ، موحشة كعش مهجور ، الجدران الطينية ومصاريع النافذة التى أجرب خشبها من

الشمس ، عروق السقف المتآكلة ، صامتين فى سكون الغرفة ننصت لطنين ذبابات منزعجة ، أتأمل التهاويل التى تصنعها بقع الحيطان ، كم أفعمت خيالى بالمخاوف ··

ـ الزبث

أسير نحوها وئيدا وهى مفتوحة العينين لا تنظر ، صدرها يعلو ويهبط بأنفاسها المحمومة أشرع ذراعاى نحوها ضارعا ·

ـ أريد أن أقبلك ·· هنا ··

أطبقت كفاى على ساعديها ، وجهها الملوح ، عينيها الخضراويين أهدابها الطويلة ، جذور الشعيرات تحت حاجبيها الرفيعين ، أرخت أهدابها وأراحت رأسها على صدرى ، ضممتها الى ، أحطت خصرها بذراعى ، رفعتها ، ثدياها الكبيران فى صدرى جسدها معلق مستريح على جسدى ، أطبقت فمى على شفتيها ، تلتهم لسانى ، عذوبة ريقها تطعم جوعى آكل شفتيها بنهم، سرت بها، أجلستها فى تجويف الشباك جثوت على ركبتى أمامها ، احتضن خاصرتها ، وجهى فى صدرها الكبير الطرى الناعم أنفاسها على رقبتى تهمس لى ·

ـ أوه ·· حكيم ·· أن أحدا قد يرانا ··

نهضت وئيدا ، قامت معى ، تقبض على ذراعى تمرغ وجهها المحترق فى كتفى ، وأنا أسير صوب الباب غائم العينين وفى هامش وعيى صوت أقدام تخفق على درجات السلم صاعدة ··

صلاح يبتسم فى رقة وخلفه ايلين تحكم نظارتها وتضحك فى فرحة طفولية ··

ـ بيتكم رائع · ·أمك لطيفة جدا ·· وأخواتك ·· صورت كل شىء ·· تصور فى البيت الآخر تصورت انه ليس لديكم نساء أبدا ··

صلاح ينظر لها مبتســـما الزبث مرتكنة على الحائط تتأمل كافورة بعيدة ، كلمت أيلين واهن الصوت ٠٠

ـ الآخر ٠٠ ليس بيتا ٠٠ أنه مكان للضيوف ٠٠

ـ لكن ٠٠ يا الهى ٠٠ لماذا ٠٠

لم أجب أتأمل الأفق الصافى سارحا ٠٠

من بعيد على سطح دارها ، أختى تلوح لنا لوحت لها مجيبا ٠

ـ أختى ٠٠ هناك ٠

وهتفت ايلين ٠٠

ـ انها ليست الأخرى التى قابلناها هناك ٠٠

ـ لا ٠٠ واحدة أخرى ٠٠ لى أخوات كثيرات

ضحكت مكملا ٠٠

ـ ماذا لو ذهبنا اليها ٠٠ هكذا من هنا ٠٠

ثم سرت أمامهم على السطح ، ثم على سطح الدوار ، ثم على سطح بيت جدى ، ونزلنا الى وسط الدار الشاسع الاتساع ٠٠

ـ هذا بيت جدى

الزبث صامتة ايلين تتلفت دهشة ٠٠

ـ البيوت فى بلدتنا كومة واحدة تستطيعين أن تعبرى القرية كلها قافزة من سطح دار الى سطح دار أخرى ٠٠

ايلين تتأمل الدار الشاسعة حولها ، الزاخرة بالعيال والدجاج والخراف ٠٠

– آه .. حقا ..

– نحن لا نحب الابتعاد عن بعضنا .. سرعان ما نشعر بالوحدة ..

نمشي صوب الباب الكبير المؤدى الى الحارة، زوجات أعمامي يتقدمن الينا حاملات الأطفال الرضع ، وأواني المعاش ، يسلمن علينا مبتسمات في حنان ..

– مشرفين ياسى عبده .

والبنتان تسلمان وتهمسان في تردد ونوع من الخوف ..

– هاللو

اقتربت مني الزبث .

– كم عدد ناس قريتكم ؟

– ثلاثة آلاف

– هذا كثيرا جدا قريتنا عشرون أسرة لا غير .. البيوت منتشرة على مساحة كبيرة ..

– نحن فقراء .. متكومون .. مكدسون في كومة ..

– عندنا .. ربما يموت الواحد في شقته ..

– ....

– يموت شخص ولا يعلم أحد .. واذا علم .. ألقى نظرة ثم مضى ..

اجتزنا الباب الكبير الى حارتنا أنا والزبث في المقدمة تتعرج بنا الحارة وتزداد ضيقا ، عند كل ركن ينهض رجل أو امرأة ويقبل

علينا ، يأخذوننى الى صدورهم ، لحاهم النابتة تحك لحم رقبتى ، رائحتهم القديمة الأليفة ، عرق أجسادهم وذلك التراب الكامن فى نسيج قماش الجلاليب ، يضموننى الى الصدور المجوفة الصلبة ، يمازجون بين الفرحة والحزن القرير كما تمازج مرارة البن حلاوة السكر فى قهوة العصر ..

ـ مشتاقين ياسى عبد

ـ الأيام يا عمى .. مابوديش أسيبكم ..

ـ أهو حتى تطل علينا .. كل آوان ..

ـ الدنيا تلاهى . .واخدانا معاها .. زى الغابة العايمة .. وأود لو يصدقونى ، لكن ذلك الانكسار العاتب فى عيونهم باقى لا تعالجه الكلمات ، تدور عيناى الى الزبث تهمس بكلمات فرنسية مرحة فى جزل يورق فى عينها كأوراق الورد .. لو تبقى معى هنا ، نتضام على مصطبة فى ظل حائط ، أدفن قلبى فى صدرها ، والناس ـ ناسى ـ يمرون بى وفى عيونهم قناعة فرحة مغايرة .

.. لكن تلاحق الحوادث يروع الأمن ، رياح هوج تمزق بقايا السحب ..

العيال حولنا يتباعدون مفتوحى العيون دهشة ، ونظرات الرجال والنساء تتباعد خلفنا ..

ـ تعلمين يا الزبث .. هذه حارتنا .. أسرتى .. كلهم أعمام وعمات وأولاد وبنات أعمام ..

ـ ان ذلك غريب ..

ـ نحن هنا منذ ستمائة عام .. أسرة كبيرة .. فلاحين فقراء .. أو متيسرين قليلا .. أسماء قليلة .. سبعة أسماء فقط تتبادلها الأسرة منذ ستمائة عام ..

– الهى لكن كيف عرفت ·· ؟

– أسطوانة من الصفيح الصدىء ·· وجدتها فى أشياء جدى ·· داخلها ورق ملفوف ·· طوله عشرة أمتار ··

– مثل لفائف البردى ··

– ·· ورق بنى مبقع ·· مئات من الطيات ·· أجيال وراء أجيال ·· لم أشك فى الورق أبدا شـــىء ما فى هذه الدور الطينية القديمة ·· الأبواب الخشبية الهالكة ·· شىء فى وجوه الناس فى الثياب المتربة ·· فى الأقدام المتشققة ·· يجعلنى أصدق هذا الشىء اثق بالورق تماما ··

– ······

تتأمل الدور والأبواب مفكرة وأنا أواصل قولى ··

– بيد مرتعشة أضفت أسمى الى القائمة ·· وجدته مختلفا تماما ·· طويل قليلا ·· معقد الى حد ما ·· من مقطعين ·· مختلف تماما عن الأسماء القصيرة اليسيرة القليلة ··

نوغل فى الحارة تضـــيق والبيوت تتقارب تحدق بنا البيوت مستخذية متهدلة الجباه أنحدرنا الى بيت أختى ، على عتبة دارها نحيلة قصيرة أقبلت على ، ضـــممتها الى صـــدرى ، تضـــحك فرحة ولا تكف عن الترحيب ·

– منور البلد ياخويا ·· أنت وضيوفك ·· أهلا ياختى ··

ضمت الزبث الى صدرها أنفرج على عناقها فرحانا ، صلاح يداعب عيال أختى ، ربما لا ينسى تحفظه وحذره الا مع الأطفال ، ايلين تسلم على أختى متباعدة ، والعيال زائطون يجذبون ثيابى ·

– مين دول يا خالى ··

ـ ضيوف غرب ياولاد ··

والولد الكبير يهشهم بعيدا ··

ـ انجليز ·· من انجلترا ·· بالله يابت أنت وهيا ·· مش كده انجليز يا خالى ··

ـ لا يواد ·· من سويسره ··

حماة أختى على مصطبة وسط الدار وحولها أدوات الشربات علبة السكر والزجاجة وصينية الأكواب الرائعة الوردية ، وأبريق الزجاج الكبير المزين بالورد ، العجوز تشمر ثوبها عن ساعدين نحيلتين ناصعى البياض ، تمزج وتقلب بحذر ·

ـ ايلين انظرى ·

ـ ما هذا ·

ـ تصنع لنا مشروبا ·· شرابا مسكرا ملونا ·· نصنعه عادة فى الزواج ·· وحينما يأتى ضيف عزيز ·

ـ أحقا ·· ذلك رائع ·· هل أصورها ··

ـ نعم ·· لماذا لا

صوبت اليها كاميرتها السينمائية ، والعجوز عاكفة على شغلها كأنها تحت ناقوس لا يصل اليها الضجيج الذى حولها ، أتابع عملها ، تلك العجوز البارعة ، التى تدعى الى كل فرح ومأتم ، تزوق وجه صحاف المهلبية بألوان حبات الكراملة ·

ايلين تصور كل شىء حمائم البنانى أسراب الكتاكيت الدجاجات المتطايرة ذعرا ، الكانون والفرن ، الجاموسة الراقدة تجتر فى الزريبة ·

– تعالى الزبث ·· انظرى ··بهائمنا تنام معنا ·· نسمع نفسها رتيبا فى الليل فنطمئن ·· اذا سـمعنا صوتا غريبا قمنا خائفين ··

– آه ···

حائرة غير فاهمة شيئا ··

– نحن غير مفهومين تماما ·· لا تفكرى ·· تعالى نصعد ·

آخذت يدها وطرت بهاناحية السلم الطينى ، نصعد ، لاسياج صلاح يتبع ايلين بعينيه وهى تصوب كاميراتها تصور كل شىء ·

عروق السـقف تلب تحت خفق دوسى الملهوف ·· ، غرفة أختى ·· وقفت على عتبة الباب ساكنا ، أتذكر عطر أختى الرخيص يوم صـباحيتها عناقها وشـالها الأحمر المخملى الناعم وغرفتها ، السرير ذو الأعمدة الحديدية السـوداء اللامعة ، الكلة يدور بها القماش المخرم الرخيص الأبيض النظيف ، الدولاب ذو المرآة والكنبة اللطيفة ·· كما هى وحيطانها المبيضة بالجير زادت تلك الطاولة وعليها الكتب والكراسات ، وتقسمت بياض الحيطان هذه الصور ، تركت أختى غرفتها لأبنها الكبير ونزلت تنام مع زوجهـا وأطفالها وحماتها فى الغرفة ذات الفرن ·· هل يمشى الآن فى الليالى خطوات الأرق فى الليل تدب تحته عروق السقف ، هل نظراته المفعمة بالشجن هى التى القت على الأشياء هذه المسحة من الكآبة أم هو الزمن والغبار ··

– انها غرفة لطيفة ··

همس الزبث جعلنى آفيق أطلقت ضحكا اجوفا ·

– تعالى ندخل ··

ادركنا صلاح وايلين وسرب العيال يتقدمهم الولد الكبير ، الزبث تتأمل بهدوء ، ايلين مرتبكة الصـــخب يملأ الغرفة ، الكنبة والســـرير مزدحمان بالجلوس كيف يتفاهمون لا أدرى غير أنهم غارقون فى السرور ··

ـ ما هذا ؟

اجبت الزبث

ـ أبوزيد ·· فارس أسطورى ·· حلم ·· حلم أسمر ذو شوارب وعيون بارقة ··

وتلك الصـــورة تقول « لا تبولوا فى مجارى الترع » مع أن الريفيون يقدسون ماء القنوات ولا يبولون فيه أبدا ··

اعترضتنا أختى بصينية الشربات ، فرحة الوجه كطفلة ··

ـ والنبى ياخويا تقلهم يشربو عندنا حاجة ·· حاجتنا نضيفة

التفت لهم

ـ يمكن أن تشربو ·· اذا أردتم ··

مشت الزبث نحو الصينية

ـ طبعا سوف أشرب

الأكواب على الصينية مثل عرائس ورديات لطيفات ، فتحت ايلين عينيها دهشة ··

ـ انه طيب ورائحته جميلة

وضعت الزبث كوبها على الصينية بأناة وأحنت رأسها لأختى ·

ـ مرسى

وأختى هزت رأسها فهما

ـ الشكر لله ياختى ·· يعنى احنا عملنا أيه

مزدهية الوجه بالفرح وأنا مائت ضحكا ··

ـ مانى عارفة ·· بتقول متشــكرين ·· أختك بتفهم أوى يا حكيم ··

يتجهون نحو الباب خارجين أختى تتشبث بى

ـ أنا فرحانة أوى ياحكم ·· ·· ياخويا أزرغت ·· ؟

ـ أيه العبط ده ··

ـ والنبى تتجوز وحدة منهم ·· نفسى فى وحدة حلوة كده

ثم أشارت الى ظهر الزبث التى تمشى مبتعدة ·

ـ الصغيرة المحندقة دهه ··

أغرقت فى الضحك وابن أختى ـ ذلك الصغير الماكر ـ يقول :

ـ ·· مش هيا دهه بتاعتك يا خالى ·· بطل لؤم بقى ·· أنت من الصبح لافف عليها زى الحبل ··

أتخلص منهم بجهد ··

ـ سلام عليكم بقى ·· عشان ميعاد الرجوع ··

وأختى تمصمص شفتيها لهفة وأســفا والولد يلتمع فى عينيه شوق عظيم ، شجن القاعد اذ ينظر فى أعقاب المسافرين ··

سرت فى الحارة ألحق بالباقين فى اذنى رنين صوت الولد ، وفى ظهرى نظرات ، التفت فجأة ، أختى تحضن ابنها الى صــدرها

تلصق خدها بخده ، لكن عينيه ليستا فى حضـــن امه ، مهاجرتان طائرتان ، جناحان محلقان ٠ يا الهى ٠٠ لا شفاء ٠٠ رحلة مقدورة النداء الأسر ، نداء المتاهة المجنونة الصخب ٠٠

الزبث تتلكأ متأخرة عن صلاح وايلين وتتلفت بحثا عنى ٠

ـ الزبث ٠٠

تبتسم

ـ ٠٠ لكن ٠٠ اختك هذه ٠٠ كم هى لطيفة ٠٠ انها جميلة حقا ٠٠ عيناها جميلتان ٠٠ لكن شيئا غريبا ٠٠ اوه ٠٠ كيف أقول ٠٠ انها توشك أن تقول شيئا ٠٠ ثم لا تقوله ٠٠ لا تقوله أبدا ٠٠

ـ الزبث ٠٠ أنتى هنا منذ الف عام ٠٠ أعرف الأشياء جميعا ٠٠ابقى هنا معى ٠٠ بجوارى الف عام ٠٠ أحكى لك ٠

ـ ٠٠

ـ الزبث

نكصت ايلين على عقبيها ورجعت علينا متوجهة الوجه ، أما صلاح فقد بقى سائرا نفس خطواته ٠ كأنما لميحدث شىء ، ايلين مبهورة ٠

ـ الناس هنا رائعون ٠٠ يعطوك ما فى أيديهم ٠٠ أوف ٠٠ القاهرة ٠٠ فظيع ٠٠ كل واحد يريد بقشيشا ٠٠

ـ أحقا ٠٠ ؟

ودب فى قلبى صوت القاهرة ، وذلك الهزيم الصاخب الموحش المروع ، حاولت أن أقول ٠٠ القاهرة أربعة ملايين ٠

لكن انجليزيتى خانتنى ، هززت رأسى مغمضا عينى يأسا ··

ــ يا الهى ·· لا أدرى ما أقول ·· المهم ·· ما رأيكم لو رأينا الحقول ·· ؟

ــ آه لاباس

مشـــــينا

امرأة صغيرة واقفة على باب دار ، أومأت اليها محييا . تعلقت نظراتنا لجـــزء من الثانية وبين رفيف عيوننا ولد ــ خائرا مرتجفا ــ حب رائق عذب مثل قطرة الندى ، حنين ترقد عليه أثقال المخاوف ، ·· أقبلت على المرأة ، تصافحنى تقبل يدى ، قبلة مخنوقة على ظاهر اليد سألتنى الزبث مستغربة ·

ــ لماذا تقبل يدك ؟

ــ ·· انها ·· انها عاطفية ·· لا أكثر ··

ماذا يمكننى أن أقول لها ، ماذا يمكن أن يقال عن السنين ، العشرات من السنين ، أن ترى الانسان طفلا صغيرا ، ثم تراه يكبر وتوغل فى البعد تلك اللحظات المفعمة أرتجافا حذونا ، حينما تكبس القيلولة على قاع الدار بالحر الخانق الرطب ، ونحن جســدان مستوفزان رغبة تناضلنى عن نفسها ، وأنا اكبس بثقالى ولهفتى على رقتهااللينة المتوثبة حتى على تراب وسط الدار ، على ليونة حقل البرســيم ، على كومة القطن الأبيض المكدس على رأسى الغيط ، تناضلنى عن نفسها حتى تلقى بى بعيدا ثم تقوم ناظرة الى ، ترقرق عيناها ضحكا هامســا متدللا مكيرا ، هاهى الآن ذابلة متهدلة ، اربت على كتفها ·

ــ ازيك ··

ـ ·· أدى احنا عايشين ياسى عبد

ـ ربنا معاك

كانت صبية زينة كفرع محمل بالثمر ، كم أوغلت فى البعد تلك اللحظات المتوهجة بالفرح ، أصبحت أصداء أسيانه فى قيعان الكلمات الحكيمة ··

ـ ربنا معاك · ·

انتهت بنا الحارة الى الجـرن الرحيب ، النخـــلات القليلة المتباعدة ، تنفسح وراءها الحقول أغطى الامتداد الأخضر الصاعد المعلم بشجرات الجميز الســـاكنات القدامى ، باللهفة الخـــافتة الفرحانة ، فرحة بكر لازالت معى كل هذا العمر ·

ـ انظرى الزبث ·· تلك هى حقولنا ··

ملائكية الوجه مملوءة طيبة ··

ـ انها جميلة حقا ··

ـ الا تخلعين نظارتك يا الزبث · ·أريد أن أرى حقولنا فى عينيك ··

ارتجفت أهدابها حــول مقلتيها ، وتألقت قطرات الذهب على اخضرار العينين الشاحب الغريب ، أحدق فيها ، يتوه زغب الوجنات فى احمرار الخجل نكست تعبت بكاميراتها ثم رفعت وجهها الى ·

ـ ألم نسبقهما كثيرا ··

كنت أنتظرك منذ آلف عام ، أى شىء فيك يفجر فى هذه الطاقات أود أن أطير أو أن أبكى قولى لى ··

ـ الزبث ·· أنه لشىء محزن

ـ ماذا ․․ ؟

ـ لقد نسى الناس أننى كنت يوما ماطفلا صغيرا ․․

ـ لكن أتعلم ․․ اننى أدرك ․․ بطريقة ما أتصور ․․ أعرف كيف كنت تضحك وكيف كنت تغضب بجوار سريرى صورة لرينوار ․․ صورة طفل ․․ نحيل ․․ شاحب ․․ يداه فى حجره ․․ عيناه حزينتان ․․ خائفتان ․․ ممتلئتين دهشة وخوفا ․․

امتلأ داخلى بدموع حميمة ․․

ـ أترين هذه الشجرة السوداء ․․ الناشفة بلا ورق أو زهور ․․

ـ ․․․․

ـ كنت أذهب اليها ․․ فى الظهيرة دائما ․․ الناس هاجعون ․․ والقرية ساكنة أذهب الى شجرتى ․․ من حفر سوداء مبلولة فى جنب الساق تخرج قطرات الصمغ ، عيون ذهبية مضاءة بالشمس ․․ أريد أن آخذها ․․ أملكها لنفسى ․․ لكننى اذا أكحتها ․․ تتشوه ․․

ـ ․․․․․․․

ـ حكايتى لا معنى لها ․․

ـ اننى أسمع

الطريق يصعد بنا وسط صفقتين من حقول القطن ، أعادت الزبث أحكام نظارتها على عينيها لا تلتقط صورا لم يبق فى كاميراتها سوى صورة واحدة ․

لحقت بنا ايلين جريا ، التفت لها ، صلاح وراءها بعيدا ،

يمشى رصين الخطوة ويتطلع لظهر ايلين مبتسما · ايلين تشير الى كوخ صغير على رأس حقل يقيم فيه فلاح وامرأته وبهيمته ··

ـ هل أصور هذا ؟

ـ اسأليه

ابتسمت الزبث بخبث ، ايلين تنظر لى مستفهمة

ـ سلامو عليكم

سلمت على الرجل وهو سلم على بحرارة ، عكفت ايلين تصور الرجل والكوخ والمرأة والبهيمة والرجل يمزق أغلفة كيزان الذرة ويرمى بها لنا ··

ـ متشكرين ياعم ·· خليها عندك واحنا راجعين ·

ـ تشرف ياسى عبد

رغبت فى معاكسة ايلين

ـ ايلين ·· أتعرفين ·· هذا الرجل دفع أربعين قرشا فقط ليتزوج هذه المرأة ··

فغرت فمها دهشة وأنا أغرقت فى الضحك ··

ـ هذا الكوخ احترق مرة ·· كانت هذه المرأة تصرخ ··· أتعلمين لماذا ·· من أجل زجاجة الكحل ··

صرخت ايلين ··

ـ أتضع فى عيونها كحلا ؟

أغالب ضحكى لأقول

ـ نعم ·· وفى داخل الكوخ تجـــدين ركنا للزينة ·· مرآة وصابونة وزجاجة الكحل ··

ثم فجأة أمتلأ صوتى حزنا وخفوتا ٠٠

ـ انها تريد أن تبدو جميلة يا ايلين

ارتبكت ايلين جمدت فى مكانها تنظر لى خائفة ، الزبث على البعد كاميراتها تتدلي من يديها المتحاضنتين تنظر لى ساهمة ، ثم تقدمت نحوى ٠٠

ـ حكيم ٠٠ هل نمشى ؟

صعدنا الى شاطىء المصرف الكبير ٠ صفان من أشجار الكافور يمتدان كثيفين يفرشان على السكة ظلا والماء فى القاع تنعكس عليه خضرة الأشجار الثرية وفى الشواش العالمية تصفر الريح ٠٠ الزبث بجوارى ، طرف ثوبها يلامس ركبتيهـــا برتابة قبقـابها يترك ٠٠ بصماته على تراب السكة ٠٠

ـ الزبث ٠٠ اننى أتقدم فى السن ٠٠

ولازالت أصوات الريح العملاقة فى الشواش العالية تملأ قلبى أغالب الأصداء ولا أمل من الغلاب ٠

ـ كم كنت اسير هنا واحلم ٠٠ واحيانا ألقى خطبا زاعقة

ـ فى الهواء ٠٠٠٠ ؟

ـ ٠٠ كان أخى مازال صغيرا ٠٠ يتأملنى مبهوتا ٠٠ وربما خائفا ٠٠ ودائما شاحبا أسود العينين ٠٠

ـ لازال ينظر لك ٠٠ وفى عينيه حبا ٠٠

ـ وألما ٠٠ فان الاحلام لا تتحقق أو تتحقق شـــوهاء حافلة بالألم ٠

ـ أليس ذلك ٠٠ ربما ٠٠ لأنها كانت أحلام مبالغ فيها ٠٠

امتلأت سخطا ، قلت مندفعا ، مليئا بالمرارة ، بالريح الصافر فى هامات الشجر .

ـ ماذا تطلبين منا .. أننا لسنا أسوياء ياسيدتى .. اننا مرضى .. جائعون .. أحلامنا نتاج حالنا .. مليئة بالمبالغة .. لأن حياتنا مليئة بالمأساة .. نحلم .. بأشياء خارقة للعادة لنستطيع أن نحيا حياة مليئة بالقبح ..

رفعت الى وجها معذبا غير فاهمة شيئا ـ صغيرتى الجميلة ـ أنفجرت ضاحكا .

ـ الزبث .. هل أحكى لك حكاية .

ـ وكيف أستطيع أن أتابعك أنك تدير رأسى ..

ـ لكننى واصلت كلامى :

ـ .. لم تكن هنا أشجار .. كان هذا الطريق راقدا تحت شمس كالجحيم .. وكنت صغيرا . جائعا .. لكنى لا أستطيع أن آكل ما معى .. خبز أسود وجبن شديد الملوحة ..

ـ ....

ـ ورأيت الولد من بعيد .. يركب حمارا وأمامه سلة من المانجو .. وفى يده واحدة يقضم منها .. اشتهيت المانجو بقوة .. حينما وازانى الولد ألقى الى واحدة .. كبيرة جدا صفراء ناعمة .. احتضنتها بكفى .. أخفيتها فى التراب ..

ـ لم تأكلها

ـ انتظرت أخى الكبير .. فلاح يعمل طول النهار تحت الشمس .. جاء كلمنى عن ولد معه مانجو .. كان يتنسم بوحشية

·· أخرجت الثمرة من التراب ضاحكا ·· خطفها فى يده لم يرض أن يعطينى منها قطعة ··

ـ يا الهى ··

ـ لم أكرهه ·· لم أكرهه أبدا ··

ـ ·· أنك طيب ··

ـ ··· وأعرف بضعة أشياء صغيرة ··

ـ .....

ـ وأصبح وحيدا أكثر كلما تقدمت فى السن

ـ لكنك لازلت شابا ··

ـ لكن أيام طفولتى ثقيلة فى قلبى كأنها هناك منذ ألف عام

ـ لقد كانت غريبة حقا ··

ـ وأريدك أن تحمليها معى ·· أتسمعين صوت الريح · يرسل الحكايا الى رأسى ·

ـ اننى أسمع

ـ كان عندنا شاب صغير ·· يعمل عندنا ·· يساعدنا فى الحقل ·· كان طيبا وكنت أحبه يأخذنى معه الى الحقل ·· الى هنا ··يومها كانت الشمس شاحبة ·· طيبة ·· كنت أجرى والعب على هذه السكة ·· أمسكت حزمة من القش ·· القيتها فى الماء ·· هنا ·· الولد خاف ·· خاف جدا ·· جرى الى « لماذا فعلت هذا ·· ؟ « لم أفهم أرقدنى فى حجره ·· قال لى » ·· ثم (فغمضت عينى ·· وسمعت صوت رجل ·· قوى رهيب (من رمى القش فى الماء ·· ؟) قال الولد (لا أعرف ·· الصغير نائم ··) كنت أرتجف من الرعب

وأنا مغمض العينين ·· عرفت أن هذه الأرض ليست لنا ·· الأرض التى يرويها أخى الأكبر ·· ويغسل عنها الملح ·· ليست لنا ··

ـ هذه الأرض ·· ؟

ـ تملكها أميرة ·· لها موظفون ·· يأتون الى دارنا · نفس المكان الذى كنا فيه منذ ساعة ويأتى الفلاحون خائفين يلقون أمامهم بنقودهم ·· قديمة ملوثة بعرق أيديهم ·· والموظفون يصرخون ·· وأبى يتوسل ·· الآن أعطت الثورة الأرض لنا ··

ـ أن ذلك رائع

ـ لكن لازال هناك موظفون يصرخون ·· وفلاحون يتوسلون

ـ اننى لا أفهم ·· لاأفهم شيئا أبدا ··

وأنا كنت مجهدا للغاية ، اغمضت عينى وقلبى على الوشيش الثقيل المبهم ·

على البعد كان ثمة جميزة قديمة ··

ـ أترين ·· هناك ·· تحت هذه الشجرة تستريح القطعان المتعبة ·· ويتبادل المحبون الحكايات لساعات طويلة ·

ـ هل نجلس هناك قليلا ··

جلسنا ننظر الى ايلين وصلاح قادمين ، جلس صلاح الى جانبى وأنهمكت ايلين فى حديث بالفرنسية مع الزبث لم أدرك منه شيئا ، أما صلاح فقد نظر الى وأنفجر فى ضحك مكتوم يهزه فى مكانه بقرة ·

ـ ملك ·· ؟

لكنه مغرق فى ضحكه المكتوم ··

ـ فيه أيه ·· ؟

ـ أبدا ·· هما مسافرين بكره ·· ؟

قلت باقتضاب

ـ أيوه ··

حقيقة قاتلة مثل المــرض الخبيث الـكامن الموشـــك على الانقضاض ، لكننى لن أقعد هنا أسح الدموع سأظل حولها ، أملأها بذاتى حتى ترحل مثقلة بحقيقتى المريرة ··

ـ هل أصوركم ··

انتبهت على صوت ايلين ، ابتسمت لها ··

ـ نعم يا ايلين ·· ان ذلك يكون جميلا ··

بدأت تصورنا ، ثم أعطت الكميرا لصلاح ، ثم لى ، وأخيرا طلبت منها الزبث أن تلتقط الصورة الوحيدة الباقية فى فيلمها لى وأنا وهى ، وجاءت ولبدت فى جنبى وصورتنا ايلين أشرعت وجهى ناحية الكاميرا مثل ريفى تلتقط له صــورة للمرة الأولى وبجواره أمرأته يكركر السرور فى قلبى شىء ما سيبقى لى ، وجهى بجوار وجهها على ورقة لامعة ستبقى معى أبدا ··

قمنا نستأنف سيرنا ، تسود أربعتنا روح مرحة صافية ، نتكلم عن الصور يضحكون من طريقتى فى الجلوس أمام الكاميرا ، الزبث ترمقنى مبتسمة ، صلاح يرجو أن يرسلوا الصور بمجرد تحميضها

قفزت أسبقهم بخطوة ثم استدرت لهم وهتفت ملوحا بيدى ··

ـ والآن ·· هل ترون مدرسة القرية ·· ؟

هتفت الزبث ·

ـ ان ذلك يكون رائعا حقا ··

وقالت ايلين كأنها تتوسل

ـ أوه ·· نعم ·· لنرى المدرسة

أما صلاح فقد ضحك ضحكة مكتومة ناعمة وأنا أبقيت انطلاقى رائقا متألقا كورقة فى قمة الشجرة الشاهقة لا يطولها سفو التراب · استدرت مستقبلا الطريق الى المدرسة وأنا أهتف بهم ورائى ··

ـ اذن ·· اتبعونى ··

أوسع الخطى قدما ·· قلبى ممتلىء بفرحة غامضة ·· لكنها أليفة ·· أعرفها ·· تصاحبنى حينما أكون متجها الى نبع طفولتى ··

الزبث تسرب متسللة داخلة الى جوارى · أتراها سـمعت نداءا آسرا نابضا باحتياجى فى كل خلية من خلايا جسدى ·· الزبث ·· الآن اسألينى ·· قالت حالمة ··

ـ كنت أتمنى ان يكون اليوم عمل فى المدرسد لأرى الأطفال يدرسون ··

ـ يجلسون خائفين مهمومين حزانى ··

ـ أوه ·· هل المدرسون بشعون الى هذا الحد ·· ؟

ـ كنا نحبهم ·· المسألة أن أطفالنا فى القرى الريفية الفقيرة يهرمون فور انفتاح عيونهم على الحياة ··

ـ ان ذلك قاسى ·· قاسى ··

عرفت شحوب وجهها دون أن ألتفت اليها ·· نعم يا الزبث فولد فى حجور الكبار القلوب موصولة بالقلوب تنشع المأساة تفعم كل القلوب والأرواح بنضج الحزن ··

ـ كانت جماعتنا تسير فى الصبح الى المدرسة ·· الكراريس فى حقائب من قماش رث ·· حفاة أو فى أحذية منصلبة بالوساخة ·

ـ تمنيت لو رأيتك طفلاً ··

ـ لكنت ضحكت ··

ـ كيف كان حذاؤك الصغير ·· ؟

ـ باليا تماما ·· لم ير الطلاء أبدا

ـ اننى لا أضحك

ـ وأنا فقط أقول اننا فقراء

انحدرنا أنا والزبث الى حوش المدرسة ، نباتات حلفاء جافة مهملة ، طلمبة تالفة ، الزبث تمشى صامتة مفكرة ·

ـ لم أتصور أبدا اننى سأرى كل هذا

ـ ألم تكن نزهة لطيفة

ـ جدا ·· لكنك غريب أعنى ·· أنت ترى الأشياء بطريقة خاصة ··

ـ أود الزبث ·· ان مشكلتى أننى لا أرى بوضوى تام ·· أننى لاعرف ، اننى فقط ممتلىء سخطا ·· حنقا ·· حزنا ·· دعينا نرى ايلين وصلاح ·· وكيف يريان الأشياء ·

تنظر لى نغرق فى ضحك مفاجىء ·

صلاح يقف بجوار السـبورة ، وايلين فى مكان طفل تتلقى درسا فى اللغة العربية ووقفنا نتأملهما ضاحكين ، حين اكتشفونا اغرقوا فى الضحك ثم قمنا جميعا خارجين ··

أمام باب المدرسة كانت ايلين تتقافز فرحة ··

ــ حكيم ·· لقد أحببت أطفالكم جدا ·· أتصورهم هنا ·· يلعبون فى انتظار ·· الجرس ··

ــ ·· وهم من هنا يا ايلين يرون مقبرة القرية بوضوح فالمسافة قريبة جدا بين المساكن والمقابر ··

أغمضت عينيها مغرقة فى الصمت رافعة يدها فى اتجاهى كأنما تبعدنى عنها تمشى ناكسة فى اتجاه الزبث تهمس لها ببطء

ــ انه غريب ·· بل مروع ··

وعلى شفتى الزبث ابتسامة شاحبة تتأملنى ساكنة ·

سرنا فى الطريق الصاعد الشواهد الطينية تملأنا صمتا ونحن نقترب ، تحف اقدامنا فى الأرض ·· سكون ·· مجتمع ثقيل جاثم ، تستدير رؤوس القبور السمراء ــ فى وحشة القيلولة ــ تتأمل اقترابنا الواهن المتردد ·· لو كبست طواقى الصوف فى قمم الشواهد فربما تحركت شفاه طينية ، وطن هزيم رهيب ، وجلجلت أكثر الكلمات عمقا وأيلاما ·· همست ··

ــ السلام عليكم

التصقت الزبث بى مرتجفة

ــ ماذا تقول ··

ــ أقول لهم سلام ·· اقاربى ·· الموتى.

جسدها يرتجف وأنا أحيطها بساعدى رقيقا ··

ــ لكنهم لا يسمعون ··

ــ ·· بل يسمعوننى ناسى ·· الموتى ··

الصبار على مربعات القبور ، وقفنا ازاءها نتأمل ٠٠ همست لالزبث ٠٠

ـ لو كنت أصيص صــــبار ٠٠ امنع عنهم العذاب ٠٠ اننى ممتلىء بالمرارة ٠٠ لكننى غير نافع ٠٠

ـ أصمت ٠٠ لا تقل شيئا آخر ٠٠ أرجوك ٠٠

دخلنا حجرة معتمة قليلا ، ذبابات خضراء تطن بلا انقطاع رائحة غريبة ، جو مخيف مقبض ثم دخلنا الى ضريح زوجة جدى ، القبر منصوب عليه هيكل خشبى ممزق الكساء ، التراب ، يكسو كل شىء بقايا شموع ، القبة الشــــاهقة الارتفاع المليئة بالعناكب ، خفاش يطير متخبطا ايلين وصلاح الى جوارنا صامتين ٠٠ قلت هامسا :

ـ جدى صنع هذا لزوجته ٠٠ ألبسه كالعروس ٠٠ جاء عمى ٠٠ ابنها ٠٠ أخذ كل الأشياء الشمعدانات ٠٠ الثريا ٠٠ زين بها منزله فى القاهرة ٠٠ ترك المكان متربا عريانا ٠

لكن فى صميم الليل ، حينما يحل الصمت وتطفأ جميع الأنوار ٠٠ يبقى المصباح الساهر الصغير ينشر ضوءا باهتا كابيا ٠٠٠ تتميز مساند المقاعد الكبيرة كأنها شواهد القبور ، وتعشش وحشة ميتة جاحظة العينين فى الأركان العتمة ، ويبقى عمى على سريره ، مؤرقا منقبضا خائفا ، الصمت البارد المترب الطنان يزحف من قيعان الدور وأضرحة الموتى ، يرقد فى قيعان حياتنا ، يتربص بنا اذا تعبنا من رقصنا اليائس فى صــــخب الزحام والأضواء ، يرقد كامنا فى انتظارنا يخنق نومنا بالفزع فنهب مرة أخرى الى الصخب المروع ٠٠

الطريق الى الدور مهجور من وطأة الحر ، خيطان عنكبوت طائرة تلصق بوجهى ، دخلنا الى الغرفة منهكين ، ألقينا بأنفسنا

على الكنبات ، جاءت الصينية ، الحمام المحشو وأرز الفرن فرحة الطعام ·· ايلين تتذوق مبتسمة ··

ـ جميل للغاية ··

ضحكوا كثيرا لابريق الفخار الأسود تتدفق منه المياه لغسيل الأيدى ··

جلسنا كسالى على الكنبات ، تمددت ايلين ·· ثم صلاح ·· أغرقا فى النوم أما الزبث فقد عكفت على حاجياتها ترتبها ثم سوت ثوبها وجلست معتدلة فى مكانها تدخن وحلقات الدخان طائرة حوا، رأسها ·· كلمتها ··

ـ ماذا لو جلسنا فى الشرفة

ـ ·· أريد أن أبقى وحدى قليلا

ـ كما تشائين ··

ـ ·· لكن ·· أسمع · ·أريد ان أشكر والدتك

ـ حسنا سأبلغها ··

ـ أريد أن أشكرها بنفسى

ـ ضحكت

ـ اننى جادة

ـ حسنا سأناديها

صالة الدوار ، متصـــلة بدارنا عن طريق باب صـــغيرة ناديت أمى جاءت وقفت فى آخر الصالة تدارى وجهها بطرحتها رحت لالزبث ··

ـ أمى تنتظرك

ـ تعالى ترجم لى

وقفت قبالة أمى قصيرة دقيقة تتكلم كأنما تؤدى شهادتها أمام المحكمة ··

ـ أشكرك جدا على كل ما صنعته من أجلنا ··

ترجمت لأمى ، تبتسم غير مصدقة ، الناس يجيئون ويروحون وهى هنا تطبخ الطعام ، هذه أول مرة تتلقى شكرا ··

ـ على أيه ياختى ·· احنا عملنا حاجة ··

ضحكت وأنا أنقل ردها لالزبث

ـ اننى لا أفهم ماذا يضحك ؟

صافحت أمى ، وعادت لمجلسها من الأريكة ، وأنا أتأملها قليلا ساهما ثم خرجت الى الشرفة ·

وقفت مستندا على السياج أنظر ، عابرون قليلون ، يلقون نظرة سريعة ، يقرئون السلام ثم يمضون ، سكون يحطه الصهد على كل الأشياء ··

عمى جالس أمام باب داره على كومة من التراب وحوله عدد من الرجال ، يستروحون نسمة ظهرية ، ماذا يمكننى أن أقول له عن هذه الرحلة ·· ؟ أمتلأت ضحكا ويبدو أن وجهى حينما تطلعت اليهم كان ضاحكا ، رفعت يدى بالتحية ورد عمى التحية مغرقا فى الضحك ·

ثم تراجعت جالسا على الأريكة مفعما بالسكون متأملا ، متطلعا الى ذؤابات النخلات التى تميل برفق طوع نسمات قليلة ··

كان الصمت يومها شاملا هكذا ٠٠ كنت طفلا صغيرا وعلى البعد فرخ ميت ملقى على أرض الشارع تحوم حول جثته الحدادى ، صممت على أن أصيد الحداة ، امسكت حجرا ووقفت على هذه الدكة انظر ، والحدادى تدور فى السماء عالية محومة ، وعندما طال انتظارى ، وضعت الحجر فى جيبى ٠٠ وفى لحظة أنقضت الحداة على جثة الفروج وطارت به قبل أن أتمكن من اخراج الحجر من جيبى ٠٠ بقيت أنظر لها طائرة عاليا ٠٠ لو كنت صدت الحداة ٠ ٠لربما كانت الأشياء كلها تغيرت ٠٠ غالبنى الابتسام اسبلت عينى محتفظا بالحداة نقطة سوداء عالية فى السماء ٠٠

الزبث خارجة من باب صالة الدوار ، ذابلة الملامح محمرة الوجنتين مهوشة الشعر متكسرة الثوب ، تمشى متكاسلة ، خطوة أليفة عارفة ، تترسل دونما كلفة أو حذر ، كأنما هى هنا منذ ألف عام تتردد بين الصالة والشرفة ، وأنا أرنو اليها تقترب ، ثم أغمض عينى مرة أخرى ساكنا فى سمعى وشوشة ثوبها اذ تجلس وتنفسها الرتيب المرتاح ، يا لها من عصرية ، النسمات اللينة شفت النفس من وخزات المخاوف ٠٠ ، كم أحن الى الشاى ، يتوق سمعى الى جرس الملاعق الناعم فى بللور الأكواب ٠

ملت بوجهى ناحية الزبث مبتسما لها ، أشرقت بسمتها ، واهنة فى نعاس وجهها ، ليس لدى ما أقول ولا ما أسأل عنه ، ولا أخاف أن تميل الشمس عن سمتها ، هى لى فى شحوب ضوئها واضمحلال وهجها ، تمنحنى لحظة وارفة أنعم فى كنها القرير ، أدور معها فى الزمن لا تنقلب المواقيت أو تستحيل ، ٠٠ الخلود هو النعمة الموعودة بعد أن تلفت العين والسمع من تقلب الأيام بالصروف ٠٠ يارب ٠٠ أمنحنى نعمة أن أبقى ساكنا ٠٠

من بعيد جاء صوت عمى ٠

ـ عندى شاى ·· وبطيخ ·· هه ·· ايه رايك ··

اومات له مبتسما ··

ـ لأ ·· لازم تيجو عندى هنا ··

نقلت رغبته لالزبث ابتسمت موافقة ··

قمنا ، جلسنا بجواره ، لم يقم لقدمنا ولم يصافحنا ، حتى لم يتكلم ، كأنما يشفق على جلال العصرية ، والناس آيبون ، الرجال والعيال والبهائم الشبعى ، شىء ما تستنبته الأشياء المستطيلة الظلال ، شجن الأفول ، يترسب فى الأعماق كالحداد ··

من بعيد ايلين وصلاح قادمين محملين بكل الأشياء ، اتأملهما يكتسحنى ابتسام مرير ، جاءا وجلسا معنا يلملمان ارتباكهما ويفضان لبسمة عمى المرحبة ··

وجاء طبق البطيخ وصينية الشاى ، وانا اعلم انه مع آخر رشفة من الكوب على أن أسأل عن مواعيد القطر الآيبة وأن اقوم راحلا ·· ياتعس الكلام عن شروق جميل ، ان ثمنه مغرب بالغ الايلام ، وليل مؤرق بالتوحد والعذاب ··

ـ مع السلامة يا عبد

الناس فى فتحات الأبواب او عند أقدام الحيطان ، يسلمون من اماكنهم او يقومون مصافحين وأنا اهمهم بكلمات قليلة ·· وعند مشارف القرية أختى ، تعانقنى زافرة بالسلام مبهورة ··

ـ ياروح اختك ··

بعد آن سوف تنكفىء مع عيالها على مائدة العشاء ، ثم تغرق الدار فى صمت ، وتستقيم شعلة اللمبة مرسلة الدخان تباعا الى السقف المسود ، مودعة برقا خافتا فى عيون حمائم للهنان ··

القرية تغور خلف ظهرى والطريق يستقيم صاعدا الى المحطة هناك غارقة فى اصفرار الشمس ··

ـ الزبث

ـ ·····

ـ هل أحببت قريتى

ـ ·· نعم لقد أحببتها حقا ··

لكننى أسألك ، هل تبقى داخلك كسيرة واهنة الصوت لكنها أكيدة لا يعلو عليها صخب الزحام ·· أننى أسألك ياحلوتى ·

ـ أننى سوف ألقاك الليلة ··

ـ نعم ·· فقط أغير ثوبى ثم أوافيك ·· سوف تنتظرنى فى صالة الفندق ··

ـ نعم···

فى عينيها رخاء وطواعية ومحبة ·

ـ ٧ ـ

ذاهب الى الفندق ، أمشى فى الزحام وحيدا ، ياليت ايقاع الحوادث يكون أقل تلاحقا ، هذه المدينة الصخابة ، لماذا هى هوجاء ملهوجة ، ثقيلة وسخة الأنفاس ، سأمشى ، لن أركب ، الوقت متسع وأريد أن أنشر حولى دائرة أعيش فيها ساعة لوحدى ··

أيحدث أحيانا ورم فى القلب ، يتمدد فيزحم الصـــدر ·· ، أيوجد عقار أو سحر ، أو احتشاد هائل وصرخة جماعية ·· نجلس كلنا فى رحب شاسع ويحكى كل واحد منا حكايته بأقل الألفاظ ذواقا ·· حينئذ أقول لكم أنها فى الصباح مسافرة ·· ولا أزيد ·· أصمت يحوطنى أنصاتكم ·· تحملنى نبالة العيون ·· تربت على وحشتى ·

لكن المدينة جيوش جرارة ، متزاحمة تفر من قدر خفى متسلط ناس شاحبون مفزعوا العيون ··

اجتزت باب الفندق داخلا ، سكون هامس ، أغمضت عينى لثانية ثم فتحتهما ، بقع ضوئية صفراء متناثرة معلقة فى الضباب ، ناس يتحركون فى كل اتجاه متأنقين لامعين ، فى دوائر مغلقة آليين جامدين خالين من المشـــاركة ، أنه لأمر لمحزن ·· الزبث يجب أن تأتى ··

لم تكن حقيبتها معها هذه المرة ، تتجه مسرعة الى ، مريدة الوجه ، القت على نظرة تائهة ، ثم أنحرف مســـارها نحو الرجل الجالس فى صندوقه الزجاجى ، قالت له بضع كلمات ثم عادت تسير تجاهى ، لكنها لا تنظر لى ، تتجاوزنى خارجة ، طرت الحق بها ، أمشى جوارها الهث ، طويل منحن عليها ، وهى تسير لا تلوى على شىء ٠٠

حفيف الأقدام والضحكات الضائعة والكلمات المجنونة ، دوائر سريعة الزوال من البهجة والكآبة والسخط والانفعال الاحق جسدها الدقيق الطـائر بكيـانى المهدم المتدفع ، فجاة توهجت عيناها فى وجهى ٠

ـ اسمع ٠٠ اننى مجهدة ٠٠ وعلى ان أعد حقائبى ٠٠ لذلك لن نبقى مدة طويلة ٠٠

غادرة هذه الحياة ، لا انى اطمئن اليها المرة بعد المرة لتعود تطعننى طعنات مؤلمة ٠٠

ـ حسنا يا الزبث ٠

تيار العربات ثقيل لامع ، يتفزز بطاقة مخيفة ، تعقلها وتسيطر عليها أيد ناعمة ترقد باطمئنان على عجلات القيادة ، نظام غريب من مربعات الضوء وسحجات البريق وصرير القوة والجنون خجل مثل طفل يسرق ، خجل من هذه الأشياء التى لاتزال تعيش فى داخلى وانا أسير فى هذا العالم الغريب الحافل بالشـــراسة والعداء ٠٠ لكننى قلت :

ـ كان جميلا أن ترى قريتى

وجهها مربد ٠٠ مخيف ٠٠ يا الهى ٠٠ حينما رأيتها للمرة الأولى فى الاتوبيس السياحى اين ذلك الكبرياء ، دوائر اللامبالاة

حول نهايتى الفم ، سحب الدخان المحلقة فى كسل ، مرغت بهاءها ، طمست روعتها باوحالى ، اهذا كل ما كنت اريده ·· لا ·· لا لم اكن أريد هذا ، التفتت الى ··

ـ لكن ·· الى أين نذهب ··

ـ آه ·· نعم ·· الم نكن نفكر فى ان نرى برج القاهرة ··

ـ ·· آمل أن نكون فى الاتجاه ··

لو كانت تقف او تبطىء قليلا ، تقول لى شيئا ، عشرين كلمة غير ذات معنى ، لكن ان تطير هكذا وأنا وراءها أنوء بجرجرة ساقين ثقيلين ·· عبر ميدان التحرير ، بجوار مبنى الخارجية ··

ـ ·· الزبث ··

سرنا هنا مرة ، ماض قريب صغير لكنه يقظ فى خيالى ، وعن الحاضر ·· ؟ وعن المستقبل ·· ؟

ـ الزبث ·· هل نتمشى قليلا على الكورنيش ·· ؟

ـ لاباس ··

ـ وهل تمشين بسرعة اقل ·· ؟

ابتسمت ابتسامة كئيبة

ـ وهل تنظرين ناحيتى قليلا ·· ؟

عيناها تناضلان حزن ملامحها ، شمس شتوية وسط سحب متكاثفة ··

ـ وهل تدعينى امسك يدك ·· ؟

أبتسمت ، التصقت بى ، جسدها نحيل دافىء ، احتضنتها ، نامت المخاوف ·· حزين أنا مثل حقل نائم تحت سيال المطر ·

النيل شـاسع ملىء بالظلام ، تنال من أطرافه انعكاسـات المصابيح ، لكنها أبدا لا تهزم ذلك الابهام الغريب الخالد ، الابتسامة الغامضة التي تستفز فى كل ما أورثتنيه الحياة من احساس باقهر ، تلبستنى رغبة رائعة مثل ريح باردة مزغردة ··

ـ الزبث ·· ماذا لو أخذنا قاربا ··

تنساق لحلمى مطاوعة ··

نزلنا الدرجات الى المرسى ، ماء القارب تحت أقدامنا ، مددت لها يدى ، جلست قبالتى ، صغيرة فى مكانها وأنا عملاق منتصب وسط القارب ، تضم البلوفر الصوفى الرقيق حول جسدها وتتأملنى فرحة طيبة رقيقة واثقة ·· أضـرب بالمجدافين متخلصـا من زحام القوارب ، واصلت التجديف حتى أصبحت فى عرض النيل ، وأضواء الشاطىء تنظر لى دهشة متباعدة ··

التفت ناظرا ورائى ، الظلام ممتد كاسح ثقيل كجبال مكدسة ، تسمع له هسيس كملايين الأفاعى السوداء اللامعة الاهاب ، تثلجت أطرافى ، هوت فرحتى فى بئر باردة سحيقة ، أكاد أختنق ، ألهث مستجديا نسمة هواء ، أضرب فى سطح الماء ملهوجا مرتبكا ، عائدا بالقارب مرة أخرى ، وجه الزبث مريد لكنها لا تنطق حرفا ·

نكست وجهى خجلا ، أحس القارب يميد لثقل الرجل الذى قفز من الشاطىء الينا ، تنحيت له عن مكان القيادة دون أن أنظر ناحيته ، أسند وجهى بين كفى ، القارب يسرب على وجه ونهر ، والماء يلطم جنباته فى همسـات عميقة متكررة عابثة ، وأنا أرفع بصرى أبدا ، خجل مهزوم عاجز ··

همست لى :

ـ المكان مبلول قليلا ..

آخرجت منديلى ، فرشته لها ، وضعت رجلا على رجل وجلست سارحة ، تأملتها قليلا ثم نحيت بصرى بعيدا ، أتأمل الضفة الأخرى التى يرسو عليها مركبنا ، انه حزمة حياة متأرجحة فى هذا التيه المعتم السحيق ، ترى أترسو بجوار هذه السفينة الكبيرة .. ؟

لكن القارب رسا على الشاطىء الطينى بعيدا جدا ، قامت . قفزت الى الشط ووقفت تنظر ، وأنا تناولت المنديل ، أعطيت الرجل نقوده وبدأت أصعد الجرف أضرب الأحجار بقدمى متشاغلا أطوى المنديل باعتناء ..

كانت تجربة القارب شيئا مخزيا ..

الزبث على بعد خطوة ، متوهجة العينين ، مالت أمسكت يدى وجذبتنى بعنف اليها صارخة صرخة مكتومة ..

ـ يالك من انسان منظم .. ألا ترجىء طى المنديل قليلا .. ؟

تعلقت برقبتى مغمضة العينين مفرجة الفم ، تلتهم شفتى . وتمرغ صدرها فى صدرى ولهانة مرتجفة ، وأنا خائف مرتبك مثل طفل يجذبه ضيف غريب ليقبله ، سـقط ساعداها من حول رقبتى مغمضة العينين تهز رأسها يائسة ..

ـ أوف .. أوف ..

صعدنا الى الشارع ، مشينا الى كوبرى الجلاء ، لا نتبادل حديثا عبرنا الكوبرى ، منصرف الى تأمل نهر العربات المتدفق ، أمسكت يدها أميل بها الى الرصيف الآخر .

انحرفنا الى شارع الجبلاية ، معتم قليل العابرين ، ثم انحدرنا الى شارع يمضى بين سورى مبنى المعارض والنادى الأهلى ، تسود العتمة وتقوم الشجرات ساكنة تتسمع ··

الزبث تمشى بعيدة عنى ، خطواتنا ترن فى سكون الشارع ، أتأملها ، صغيرة تائهة الخطوة ، امتلأت حنانا ، مددت يدى ، جذبتها نحوى برفق ، ورويدا رويدا جاءت الى مطاوعة ، ضممت كتفيها الى ، نحيلين ، مرغت وجهى فى هالة شعرها ، امتلأ أنفى برائحته لم يغسل منذ زمن ، اسمع فحيح أنفاسها ، دخلنا فى دائرة ظل كثيف تفرضها شجرة حول جذعها واستندت بظهرى الى الساق الغليظ الصلب ، ذراعاى حول خصرها ضممتها الى رفيقا ، رفعتها بين يدى متانيا ، مغمضة عينيها ترفع نحوى فما مرتجف الشفتين ، بفمى ازيح قصتها عن جبينها ، ثم تنحدر شفتاى تمسحان وجهها الى شفتيها ·· أحبها بكل ما فى كيانى من ضعف وخدر وبكاء تكورات شفتيها تلمسان شفتى برقة ··

فجأة انتفضت متخلصة مبتعدة ، كان ثمة خطوات ترن فى العتمة أكيدة مقتربة ، خطوات جلاد ·· حازانا ·· تأملنا خائفا مصرا ·· سرنا مبتعدين فى الاتجاه المضاد ·· تسبقنى بخطوتين تتنهد ممتلئة اهتياجا وتوترا ·

حينما ابتعد الرجل قفزت الزبث الى ظل الجدار ، تشدنى اليها من قميصى ، تعلق ذراعاها برقبتى ، مرغت وجهها بقوة فى وجهى وأنا كنت أرى ـ أعلى الشارع ـ رجلا آخر قادما ، لكننى لم أجرؤ على ابعادها ، تتعذب على صدرى والهة وأنا ساكن مثل حشبة مسوسة ، مستسلم للتلف الناغل فى عروقى ، بأعلى دروبى تنتصب قوائم المشانق وأنا أمضى نحوها بلا بسالة ، انما أسير طوع قدر كامن محتوم ··

رفعت وجهها الى دهشة ، رات نظراتى بعيداً ، التفت حيث انظر .

ـ أوف .. فظيع .. لم ار مدينة كهذه ابدا .

ثم اندفعت ســـائرة امامى وانا اندفع خلفها مثل جمل ابله عجوز .. وهى تولول ..

ـ عيون .. عيون .. فى كل ركن .. ينظرون اليك هكذا .. لا يتركونك وحيدا ابدا ..

امام باب النادى الأهلى تنتظر بضعة سيارات ويتحلق بضعة سائقين يرتكن بعضهم على أنوف الســيارات ، حينما حاذيناهم تأملونا ، تبادلوا الضحكات والتعليقات عيونهم مسلطة علينا مثل كشافات السيارات ، ألقت على الزبث نظرة خاطفة مرتابة ، وهى تشير اليهم .

ـ ماذا يقولون .. ماذا .. ؟

ـ لم اسمع

ـ أوف .. أسمع .. أنتبه لى ..

وقفت امامى عرض الطريق منقبضـــة متوترة مرفوعة الرأس تتكلم بوضوح تعليمى وبعصبية مدرسة تحاسب طفلا مقصرا ..

ـ أننى أسألك . واريد أن تجيبنى .. لماذا تبقى فى هذا البلد . ؟ ريح غريبة تندفع فى شراييني ، تطرد الاستخذاء والخور من كيانى ، أنظر الى جروحى بجسارة من اعتادها .

ـ انها بلدى يا الزبث

وهى تفح فحيحا مكتوما ..

ـ مروعة بلدك هذه .. مروعة ..

سرث ، مشيت دون أن تعنى عيونى باصطحابها ، لم يعد رأسى يحتمل ، تتفجر فى مخى صور مهوشة بنافورات الضوء ويقع الظلام . ·· لكنها تلحق بى ، تزحف الى جوارى تتأمل شرودى قلقة ممتلئة حنانا ·

ـ حكيم ·· أين تذهب

هل ضللنا طريقنا ، دارت عيناى تفتشان ، ثم وجدت الشارع، أنيق ساكن ، على جانبيه تتباعد أعمدة المصابيح وتقوم الأشجار والنخيل الشاهق ·· دخلنا الشارع صامتين نسير حتى الساحة الكبيرة المبلطة أمام البرج ··

ـ انتظرينى أحضر التذاكر ··

أضواء تنعكس على طاولات مستديرة ومقاعد لكن لا أحد هناك أبدا ، عدت بالتذاكر ، الزبث تجلس مطرقة سارحة ، لم أرد أن أزعج شرودها ، جلست بجوارها محاذرا ، رفعت عينيها الى ·· بقيت أتأملها ساكنا ، العذراء خارجة من صفحات أنجيل متى ·· نحيلة الوجه واسعة العينين ·· وفى أغوار الصمت ·· فى أعماق كيانى ترن موسيقى القداس الكبير تحركت ·· تحركت شفتاها ··

ـ هل نقوم ؟

همست

ـ ليتنا لا نفعل

وقفنا ننتظر الاسانسير الصاعد الى البرج ، وقت طويل وهى داكسة ، أقتربت منها ، وضعت ذراعى حول كتفيها ، سرت بها دائرا حول جسم البرج أسندتها برفق على الجدار ، تنظر الى ساهمة ، ملت لأقبلها ، هزت رأسها رافضة دون أن يتجهم الحلم الرقيق فى ملامحها تنهدت ·· أخذت يدها عائدا بها الى باب الاسانسير ··

ركبنا مع ولد صعيدى صغير ، صامتين تماماحتى وقف الاسانسير وأشار لنا الولد على الباب فخرجنا ..

بضعة كراسى وجرسونات يتلكأون فى انتظار الزبائن ، لم ندخل ، واصلنا الصعود على سلم صغير الى شرفة البرج ، أخذتها الى السور محيطا كتفيها بذراعى ، القاهرة تمتد أمامنا شاسعة ، انهار الضوء تتدفق تشقق كتل العتامة ، فاجأنا من خلفنا صوت شاب ..

- تقدروا تشوفوا التلسكوب .

بوغتنا ، التفتنا جميعا مرة واحدة ، الشاب يقف أمامنا مؤدبا يفرك يديه ..

- تقدروا تشوفوا التلسكوب ..

مضينا حيث أشار نطرف ناحيته فى حذر ، صعدت الزبث ونظرت قليلا ، ثم أنا لكنى لم آر شيئا جاء الشاب وأصلح التلسكوب .

- بص بقى .. حتلاقى ناهد صبرى بترقص على سطح سمير أميس ..

قلت فى نفسى يبدو أنه يقضى وقته ناظرا فى التلسكوب ، الراقصة هناك فعلا ، صغيرة قدر الأصبع تتمايل فى ردائها ، ثم انتهى المشهد فجأة ..

- خلاص .. تدفعوا ثلاثة صاغ تانى ..

أخذت الزبث تدور فى الشرفة حول البرج ، نتأمل القاهرة ، ياربى ، ما أروع أن يكون الانسان على هذا الارتفاع من الأرض ، هناك فى القاع السحيق ، تاكسيات .. كازينوهات .. فنادق أسلاك

تليفون ترتعش بكلمات غـــريبة ٠٠ وأنا هنا لا يطولنى شىء من الشراسة المعربدة فى الشوارع ٠ ما أروع أن أكون الها ، وما أشد رداءة هذا فى نفس الوقت ٠٠ أنه مفزع ٠٠

اننا وحيدان ، أخذت الزبث الى صدرى بكل أشواقى ، أقبلها فى وجنتيها فى شفتيها رقبتها ، تتملص منى ، تتقافز فى يدى سعيدة كسمكة وأنا أقبلها بلهفة وارتياع وفجأة انقص علينا الشاب ٠

ـ لامؤاخذة ٠٠

تلفت حواليه مرتبكا ثم مضى ٠٠ ارتكنت الزبث على الحائط شاحبة غارقة فى اليأس وأنا قبالتها عاجز عن فهم أى شىء ٠٠

عدنا الى الداخل ، المكان مضاء ، الضـــوء يجعل النوافذ الزجاجية عمياء لا تطل على شىء وتفقد حكمة وجودها على هذا الارتفاع الشاهق ، ويصبح المكان مجرد مقهى صغير قذر ، مشى الينا نوبى عملاق كسول بطىء الحركة كئيب الوجه ٠

ـ أيوه ٠٠

ـ حاجة ساقعة ٠٠

مضى مشمئنطا وبقينا نحن ننتظر صامتين ٠٠

وحتى عدنا مرة ثانية الى الباحة المبلطة أمام البرج لم نكن قد تبادلنا ثلاث كلمات الزبث تمشى الى جوارى ساكنة شاردة العينين، همدت الرغبة التى كانت تستفزها ، رنين خطونا على البلاط أجوف، انحدرنا الى الشارع الصغير الأنيق ، على يسارنا حديقة جميلة أرادت الزبث أن نتمشى فيها قليلا ٠٠

شجيرات ورد بلدى ، زهور فى أحواض ، ممرات مفروشـــة بالرمل تتقسم الأرض المحروثة مقاعد ، أشجار ، نخل عالية ندية

القمم ببقايا أضواء ، أعصابنا محتاجة الى هذا الامتداد المشجر لتهدأ قليلا ·· مشينا على مهل ·

فجأة أمتلأ الجو بصرخات أنثوية مهتاجة ، اعداد من البنات يجرين مندفعات مختلطات يرتدين يونيفورم المعهد العالى للتربية البدنية ، لهثات وتصايح وضحكات مكتومة وأنفاس مبهورة ، صرخت الزبث مرتعبة ·

ـ ما هذا ؟

قبضت على ساعدها بقوة ، أهتف بها، وصخب البنات حولنا يغطى على كلماتى ··

ـ لا شىء ·· لاشىء يا الزبث ·· ليس شيئا ·· طالبات يهربن من المدرسة من أجل ليلة فى البيت ·· أو سهرة مع صديق ·· أن هذا ليس شيئا ··

تتملص منى بقوة ·

ـ دعنى ·· لا أريد أن أرى هذا ··

ـ حسنا ··

ـ لنمشى فورا ··

البنات يجرين حولنا فى كل اتجاه ، جرينا نحن الاثنين كذلك حتى انتهينا الى الشارع الرئيسى ، والبنات حولنا يحاولن استرداد أنفاسهن مطمئنات صاخبات بالضحك والأمان ·

ورويدا رويدا تفرقن بعيدا وخلا الشارع لنا ، أضواء المصابيح تبرق خافتة على الأسفلت والشجرات تفرش دوائر الظل على الرصيف ·

نقترب من كوبرى أبو العـــلا ، اتجهت الزبث الى ســـور الكورنيش ، جلست ، وجلســت بجوارها تدلت ســيقاننا ، كعوب احذيتنا تخبط فى الجدار ·· لا جدوى ·· لا جدوى ·· من أى شىء رغبتى فى الكلام تولد وتموت دون أن تتحقق ·

أتأمل الكوبرى الضـــخم المكين ، أدور حوله بروح بليدة . تحركت شفتاى ببضع كلمات انجليزية ركيكة ··

ـ ·· أى رمز للفشل ··

وكأنما لسعتها نحلة ، شهقت ملتفتة الى وفى عينيها جنون غير مفهوم ··

·· ماذا ·· ؟

أرتبكت الى اقصى حد ، وبقت شفتاى تتحركان ، أتمتم عاجزا عن تكوين جملة صحيحة ··

ـ الكوبرى ·· ذلك الكوبرى ··

ـ ماذا تقول ·· هل جننت ·· ؟

اكتسحنى تيار بارد ، سألت بصوت غاية فى الضعف ·

ـ ·· ماذا ·· حدث ··

ـ ماذا تقول ·· ؟

ـ أقول ·· أن هذا الكوبرى ·· وبرج ايفل ·· بناهما مهندس واحد ·· كان يريد للكوبرى أن يفتح ويغلق ·· لتمر المراكب ·· لكن الكوبرى لم يفتح ·· الرجل حينئذ ·· قتل نفسه ··

بقت تنظر الى غير فاهمة شــيئا على الاطلاق مريدة الوجه متوهجة العينين ·· ثم هزت رأسها قانطة ··

ـ أوف ٠٠ أوف ٠٠

ثم أسبلت جفونها مستسلمة ٠

ـ أننى تعبه للغاية ٠٠ أريد أن أظل ساكنة قليلا ٠٠

أحسست بالخلاص لافلاتى من تحديق عينيها ٠

وعلى بعد مترين من مجلسنا تم المشهد فى دقيقة ، سيدتان تسيران على الرصيف وكالأفعى ـ دون أدنى صوت ـ اقتربت منهما عربة بوليس بيك آب ، نزل من العربة مخبران احاطا بالسيدتين من الخلف ، لثانية تبادل الأربعة نظرات خرساء ، والمرأتان صعدتا الى جوف العربة واحدة وراء الأخرى دون كلمة ، ثم همدت الجلبة الصغيرة الهامسة ٠

ارتكن المخبران على جسم العربة بكتفيهما متقابلى الوجهين يتبادلان كلمات غير مسموعة يتداولان أمرنا دون شك ، وفى اللحظة التالية سوف ينقضان علينا ، أغمضت عينى ٠٠ أهوى ٠٠ أهوى بلا توقف فى آبار الظلام ٠٠ أهوى وأهوى ٠٠ أمعائى تخرج من فمى وتسد حلقى ، أمسكت يد ذراعى بقوة ، فتحت عينى ببطء لأواجه المصير ، لكنها كانت الزبث ٠٠

ـ ماذا بك ٠٠

نظرت ناحية العربة ، لازالا هناك ، الزبث لم تلاحظ شيئا ، أخذت يدها وقمنا ، أمشى ببطىء شديد ، أحاذر غاية الحذر لدرجة توقف الحياة الكامل فى كيانى ، حتى لا يرتابوا بنا ٠٠ حتى أبتعدنا وصوت الزبث نسمة رقيقة تعيدنى للحياة ٠٠

ـ حكيم ٠٠ أنا أسأت اليك ٠٠ أوه ٠٠ كم أنا آسفة ٠٠ كنت عصبية تماما ٠٠

الدموع تغرق وجهى ، لم أجرب أبدا تدفقها بهذا المقدار ، أمسكت الزبث ذراعى بقوة ··

ـ لا تبك ·· أنا آسفة ·· لا تبك أرجوك ··

كان هذا عذبا رفيقا ، لكنه لم يكن أبدا ليمسح الجراح القديمة دموعى تسح بلا انقطاع ··

ـ لم أعرف أبدا الواحدة الصحيحة ·· كن جميعا مومسات

تمرغ وجهها فى ساعدى بحرقة ··

ـ أوف ·· حكيم ·· أرجوك ·· لا تقل شيئا · كم أنا آسفة ·· أنا أثرت كل هذا ··

ـ كن خائفات العيون ·· يقفزن عند كل صوت يسمع ·· الأولى ·· كانت سمراء سمينة باتت عندى ليلة ·· وبعد أسبوع رأيتها خارجة من قسم البوليس وأنا خارج من الكلية قذرة كلها ·· مجنونة ·· لحقت بها ·· مشـــيت معها ·· حولنا جموع الطلبة مندهشين تضحك لهم وتصدر أصواتا داعرة مجنونة ·· وأنا أسير الى جانبها صامتا ·· فجأة تركتنى وفرت هاربة ·· لقد رأت مخبرا من بعيد ··

ـ اسكت ·· اسكت أرجوك ··

ـ اننى لست بشعا ·· لست سيئا لهذا الحد ··

ـ لا ·· لست سيئا ·· أنت رائع ·· لن أنساك أبدا ·· لن أنسى أبدا هذه الأيام الغريبة ··

ـ وسوف تأتين الى بيتى ··

ـ ·· نعم ··

ـ البيت الذى لم تدخله أبدا واحدة صحيحة ··

عبرنا شارع ٢٦ يوليو ، سرنا فى شارع جانبى قليل الضوء ، مدخل العمارة فخم أصص زرع ومرايا ورخام مصقول ، البواب ضخم نائم على دكة فى المدخل ، تململ فى رقاده هرعت الزبث الى التصقت بى ، ضممتها ، ربما أقتل انسانا يحاول الاقتراب منها ··

عاد البواب يغرق فى النوم ··

رسا الاسانسير على الدور الأخير ، وحينما أغلقناه خلفنا ساد الظلام ، أمسكت بيد الزبث وسرنا نتحسس طريقنا فى المشى المظلم ، أخيرا كان الباب مستطيلا فضيا فى العتمة ، دخلنا ، فراغ السطوح شاسع لامع ، تؤطره قمم العمارات ، كتل سماء حادة الزوايا ، أبواب الغرف متتابعة مغلقة ··

وقع خطواتنا على البلاط واضح فى السكون ، سكون على حوافه همهمات غريبة تقترب باب غرفتى ، خطوات قليلة تملك ذات التأثير على روحى اذا أقطعها كل ليلة آيبا ، الرجوع المفلس الموحش المرير ، أمسكت يد الزبث ·

أضأت النور ، قفزت الحيطان الأربعة واقفة أمامى بيضاء بلا شبابيك ، يا لها من غرفة ضيقة ، السريران بجوار الحائطين متقاربى الرأسين ، هكذا نتمدد أناوأخى جزءا كبيرا من الليل ، كل ليل على مدى عمر موغل فى القدم ··

قدمت لها المقعد الوحيد ، جلست الى مكتبى تركت الباب مفتوحا ، وقفت الى جوارها مرتكنا بظهرى الى الحائط تنظر لى مبتسمة وانا مجهد وساكن ، كل ذرات كيانى مرتبة تجاهها ·

ـ غرفتك مرتبة ونظيفة ··

أتحدث بخفوت وصفاء ··

ـ سرعان ما تتسخ الأشياء وتعم الفوضى ··

بعد أن أقضى يوما كاملا ، أغسل كل شىء حتى يصير ناصعا أرتب الأشياء جميعها ، ثم أغسل نفسى وأصفف شعرى وأستلقى ساكنا على سريرى ، ساعة رائعة ، لكننى فى النهاية أقوم ، أتحرك آكل ، ألبس لأخرج ، أعود ، ·· وتبدأ الأشياء تضطرب وتتسخ وتتكدس الفوضى حتى أحس بالدوار ·· لو كانت الأشياء نظيفة دائما ومرتبة ، تشتغل فى نسق ··

ـ أنا أيضا لى شقة صغيرة لطيفة ··

ـ قلت لى ··

ـ أقيم وحدى · ·أحيانا أبقى ساعات طويلة ساكنة ادخن ·· أحيانا أنزل عند صاحبى البيت ·· عجوزان لطيفان ·· أحيانا آخذ عربتى وأذهب الى أمى وأبى ··

ـ بعيدون جدا ··

ـ ليس كثيرا ·· لنا مزرعة ·· تعرف ·· ؟

ـ نعم ··

ـ مساحتها هكذا ··

كتبت الرقم بالأمتار المربعة على ورقة وناولتها لى ··

ـ حقولنا بعيدة عن القرية ·· كما رأيت ·· يذهب الناس جميعا فى الصباح ·· كأنهم ذاهبون الى مصنع ·· والأرض مقسمة الى قطع صغيرة ··

ـ لاحظت هذا ··

ـ كل أسرة تعمل فى قطعتها ·· وفى المساء يرجعون ·· حينما توشك الشمس على الغروب ·· يكون ·· مشهدا بالغ التأثير ··

تعبث بالأوراق على مكتبى ··

ـ كتابتكم غريبة ··

ـ ······

ـ ······

ـ أتعلمين ·· أننى أكتب القصة

ـ نعم ·· أعرف طبعا ··

ضحكت وبدت لى المسألة مليئة بالفكاهة ··

ـ لماذا تضحك ·· ؟

ـ لا شىء ··

ـ لم تنشر شيئا

ـ لا ·· لكننى قرأت أحدى قصصى لعدد من الناس ·· حوالى عشرة ·· بقوا ينظرون لى طول الوقت ·· ثم مشوا دون كلمة ··

لو نواصل حديثنا الى أن نجهد تماما ، ثم ننام وفى الصباح نرتدى ثيابنا وننزل الى الشمس سيكون ذلك صبحا رائعا ·· كم تمنيت أن آتى بها الى غرفتى لاجردها من ثيابها وأفترسها هل هى ذى أمامى ساكنة الى مكتبى · ·ابتسمت ، جاءت ابتسامتى دون سؤال ··

نحن فى الضوء الباهر المحبوس فى الغرفة الصغيرة ، فى الخارج يقف حائط الظلام مرقطا بمربعات الشبابيك البعيدة ، لا نرى شيئا لكنا سمعنا معا دبيبا أرتجفت الزبث ··

ـ ما هذا ؟

اصطنعت اللامبالاة محاولا جهدى أن أبقى على صـــفاء حديثنا ··

ـ ربما شخص يئوب الى غرفته ··

تحاشينا تبادل النظرات تعبث بالأشياء على المكتب فى عصبية قليلة نحاول أن نبدأ حديثا ثم ذلك الدبيب ويشد أنتباهنا ··

ـ لقد تأخر الوقت ·· يجب أن أعود الى فندقى ··

ـ ·· هكذا ··

أبتسمت ··

ـ أننى سأقوم فى نهاية الأمر ··

نعم ·· فى النهاية ·· ثم أعود الى أشيائى العارية المروعة مرة أخرى ·

ـ لكنك سوف تقبليننى على الأقل ··

أبتسمت ، مددت يدى الى الزر ، أطفأت النور ، اتضح امتداد السطح غارقا فى ضوء فضى خافت ، أمسكت بيدها ، طاوعتنى ، مشينا الى السرير ، جلست الى جانبى لابدة فى جنبى غرقت شفتاى فى حنان شفتيها ، ريقها مر من الدخان أضمها الى صدرى بلهفة أحاطت رقبتى بذراعيها أمرغ وجهى فى خدودها ، قصتها تناوش جبهتى ، أمتلأ ثدييها فى صدرى ، تهمس فى رقبتى ··

ـ كفى ·· كفى ·

مليئة بالعذوبة بعيدة عن أى انفعال ··

ـ كم أحببتك يا الزبث ··

تجلس على حافة السرير حالمة مبتسمة ، وجهها قمر خافت فى عتامة الغرفة ، أمسكت يدى ، تحدق فى عينى ، عيناها قاتمتا الخضرة ، قبلت شفتى المغمورتين بشفتين مضمومتين ·

ـ حكيم ·· لا أريدك حزينا ··

ـ ليتنى أستطيع ··

ـ ستعود بى ··

ـ نعم ··

قمنا ، سوت ثوبها ، وأنا مرتكن على الحائط انتظرها ·

ـ هل نمشى ؟

ـ نعم

خطت خارجة ، أغلقت الباب ، ضــغطت القفل فأصرب تكة أنغرست فى قلبى كاللخبو ··

ـ حكيم ·· اننى لن انساك أبدا ·· لم يكن ما جرى شيئا عاديا ·· لكننى ·· أوه ·· كم أنا آسفة ··

ـ لا تبالى ·· لا تبالى ··

ـ حكيم ··

ـ ·····

ـ هل تعدنى ٠٠ ؟

ـ ماذا ٠٠٠

ـ عدنى أولا ٠

ـ أعدك

ـ سوف توصلنى

ـ نعم

ـ وستعود فى نفس التاكسى لن تنزل لوداعى ٠٠

ـ ٠٠٠٠٠

ـ لن تنظر فى ظهرى وأنا عائدة الى الفندق ٠٠ سأقف وأراك ترحل ٠٠

ـ ٠٠٠٠٠٠

ـ لن تأتى الى الفندق فى الصباح ٠٠ لن تصحبنى الى القطار ٠٠ لقد وعدتنى هه ٠٠ ؟

ـ نعم الزبث

سارت أمامى ، أتبعها متأخرا عنها خطوة ، أستدارت لى فجأة، تهمس فى نبرات قانطة ٠٠

ـ لماذا تبقى هنا ٠٠

ـ على أن أبقى ٠٠ لا أدرى لماذا ٠٠ لكن على أن أبقى ٠٠

ـ لماذا ٠٠٠٠ ؟

ـ هل احكى لك حكاية أخيرة

ـ ٠٠٠٠٠

ـ عن ناس فى قريتى ‥ مرضى ‥ فى بطونهم جزء تالف ‥ يظل يفرز الماء بلا انقطاع حتى تمتلىء بطونهم ‥ يفرغون هذا الماء ‥ لكن بطونهم تمتلىء مرة أخرى ‥

ـ يا الهى ‥

ـ رأيت كثيرا منهم وأنا صغير ‥ لونهم أصفر وأسود ‥ عيونهم صفراء تماما وبنية نحاف جدا ‥ بطونهم كبيرة جدا ‥ مثقلة بالماء ‥ يجلسون ســـاكنين بجوار الحيطان ينظرون للعالم نظرات مليئة بالأدانة ·

ـ حكيم ‥ لا تتكلم هكذا ‥ أبدا ‥

ـ عندى شىء مثل هذا ‥ فى روحى جزء تالف ‥ يفرز الماء بلا انقطاع ‥

ـ اننى لا أفهم ‥

ـ لكننى أفهم ‥ عجز ساقى وامتلاء بطنى ‥

ـ حكيم ‥ اننى راحلة

ـ لكننى سأبقى هنا

أحدق لهذا العـــالم بعينين صـــفراوين مليئتين بالادانة ، فالكراهية أعظم مواهبى ، أضم عليها صدرى ، لا يراها أحد ، لكنهم يحدسونها فى عينى المتلئتين الا عاجزا كئيبا ·

بقت تنظر لى قليلا ثم ســـارت أمامى ، أتأمل خطوط ظهرها المحدودبة ، صراخ مجوسى فى داخلى ‥ لا ‥ لست متسامحا ‥ لست متسامحا أبدا ‥

رقم الايداع ٤٩٣٥/٨٧

الترقيم الدولى ٥ ـ ١٤٦٨ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

محاولة للخروج .. رواية [illegible] العزف على وتر اللقاء بين الحضارات .. ذلك اللحن الذي بدأه [illegible] الحكيم في (عصفور من الشرق)، وأسهم في وضع فواصله [illegible] في (قنديل أم هاشم) ثم الطيب صالح في (موسم الهجرة إلى [illegible]) والآن، يحاول الكاتب الكبير عبد الحكيم قاسم أن يبدع [illegible] أخرى جديدة على ذلك اللحن القديم بحيث يمزج فيها مزجا فريدا بين [illegible]) و (الاجتماعي) متناولاً فترة حرجة وقاسية و[illegible] [illegible] تاريخنا، تلك الفترة التي سبقت هزيمة يونيو ١٩٦٧ [illegible] وكانت إرهاصاً واضحاً لها.

قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب